@ketab_n
Follow Me
12.9.2015

جورج أمادو

ميتتان لرجل واحد

رواية

ترجمة: عبدالجليل العربي

تقديم: شوقي العنيزي

الطبعة السادسة

الرواية التي تُرجمت إلى 50 لغة في العالم



جورج أمادو

ميتتان لرجل واحد

رواية

ترجمها عن البرتغالية

عبد الجليل العربي

راجع النصّ العربيّ وهذّبه

شوقي العنيزي

مسكيلياني للنشر

Twitter: @ketab_n

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

Twitter: @ketab_n

مئتان لرجل واحد

المؤلّف: جورج أمادو

عنوان الكتاب : ميتتان لرجل واحد

ترجمة: عبد الجليل العربي

مراجعة: شوقي العنيزي

تقديم: شوقي العنيزي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الفنان رؤوف العرفاوي

الناشر: مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 22997848(216+) أو 531531622(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 978-9973-833-22-5

الطبعة السادسة: 2015

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

Twitter: @ketab_n

إلى «زيليا»، في منحدر السفن.

إلى ذكرى «كارلوس بينا فيليو»، أستاذًا في الشعر وفي الحياة، هديرَ ماء على طاولة الحانة، وعلى طاولة البوكر قائدًا رقيقًا، أهدي هذه الحكاية، وهو يخوّض اليوم في البحار المجهولة بجناحيه الملائكيّين، الحكاية التي وعدته بأن أقصّها لأجله ذات يوم.

إلى «لايس» و«روي أنطونيس»، ففي منزلهما الأخوي في «برنمبوكانا»، ترعرع «كينكاس» وصحْبُه على دفء الصداقة الحميم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(على كل فرد أن يعتني بدفن نفسه، فلا وجود لمستحيل.)

(كلمة الوداع لـ«كينكاس هدير الماء»

حسب رواية «كيتاريا» آخر من كان إلى جانبه)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

إلى حدّ هذا اليوم، والغموض يلفّ حكاية موت «كينكاس هدير الماء». شكوك كثيرة ما تزال تنتظر تفسيرا، تفاصيل سخيفة، وتضارب في أقوال الشهود، وثغرات متعددة في الحكاية ما تزال كلّها في حاجة إلى تفسير. لا شيء يبدو واضحا لا الزمان ولا المكان ولا الكلمات الأخيرة التي قال. فالعائلة المدعومة من الجيران والمعارف، دافعت بلا هوادة عن رواية الموت الصباحي الهادئ، بلا شهود ولا أبهة ولا كلمات وداع، قبل عشرين ساعة تقريبا من ذلك الموت الآخر، الذي شاع وانتشر، قُبيْل الفجر، عندما كان القمر يلفظ آخر ذرّات النور على البحر، والعجائب تتهيّأ لتأخذ مكانها على ضفاف مرسى «باهيا»... حينها، وبحضور شهود طيّبي السمعة، قال كلماته الأخيرة التي تنقّلت بصفة واسعة من لسان إلى آخر، على السفوح والمنحدرات المشبوهة، وكانت، حسب رأي أولئك الناس، أكثرَ من مجرّد وداع للعالم، بل شهادة نبوية ورسالة عميقة المغزى، كتلك التي يصوغها أحد كتّابنا الشبّان المعاصرين.

وعلى الرغم من وفرة عدد الشهود الثقات، من أمثال «الكابتن مانويل» و«كيتاريا» جاحظة العينين، صاحبة الكلمة الصادقة، فَثمّتَ من نفى جملة وتفصيلا أيّة صحّة في الرواية، لا فقط في ما تعلّق بالكلمات الأخيرة التي اشتهرت بين الناس، بل بكلّ ما ارتبط كذلك بأحداث تلك الليلة العاصفة، حين ظهر «كينكاس هدير الماء» على خليج «باهيا»، في توقيت مشبوه، وفي ظروف غامضة، وغطس في البحر مسافرا سفرته الأخيرة بلا رجعة وإلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

هكذا هي الدنيا، عالم مليء بالمشكّكين، الرافضين، مثلما هو مليء بالناس البسطاء المشدودين إلى النظام والقانون وقواعد السلوك، والوثائق المختومة، كثور يقود عربة. لذلك فقد صدّق هؤلاء، في إحساس بالنصر، شهادة الوفاة الموقّعة من طرف الطبيب عند منتصف النهار تقريبا، ولم يشكّكوا في مضمونها، لا لشيء إلاّ لأنّها كانت مختومة على قصاصة مرقونة من الورق، على الرغم من تغافلها عن ذكر الساعات الأخيرة التي عاشها كينكاس باندفاع حتّى رحيله، عن طواعية وعن طيب خاطر، حسب ما صرّح به هو نفسه بصوت عال على مسمع أصدقائه وآخرين كانوا حاضرين.

عائلة الميت: ابنته المحترمة وصهره المستاء، الموظّف الحكوميّ صاحب السجّل الواعد؛ والعمّة «ماروكاس» وأخوه الأصغر، التاجر صاحب الرصيد المتواضع في البنك، أكّدت بشدّة أنّ الحكاية كلّها ليست سوى أكذوبة كبرى اخترعها السكارى الملاعين والأوغاد الخارجون عن القانون وعن المجتمع، أولئك الأنذال الّذين ينبغي أن يكون مكانهم الحقيقي خلف قضبان السجن، لا الركض في الشوارع بحريّة، والسير على رمال الشواطئ الذهبية قرب مرفإ «باهيا»، وبدلا من الاستمتاع بالسمر الليليّ في المناسبات المتعدّدة، دفنوا أنفسهم في حمأة الفجور، بتسهيل من «ملك اللّيل» صديقهم «كينكاس هدير الماء» الّذي كان قدوة هؤلاء المرضى.

من الظلم تحميل أولئك الأصدقاء كامل المسؤولية عن الحياة المشؤومة التي عاشها «كينكاس» في السنوات الأخيرة، حتّى صار منبوذا داخل العائلة ومصدرَ عار في نظرها، فلم يكن أحد يجرؤ على التلفّظ باسمه أو الحديث عن أفعاله في حضور الأطفال الأبرياء، في حين كان ربّ العائلة «جواكيم»[1] صاحب الذكرى الخالدة، حسَنَ

(1) «جواكيم»: هو «كينكاس» نفسه قبل أن يسقط في حياة المجون. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

السيرة، مُحتشِمَ السلوك، محاطا باحترام الجميع وتقديرهم، إلى أن اعتبرته العائلة ميتا. وهذا ما يقودنا إلى ملاحظة مفادها أنّ موتا أوّل قد وقع منذ سنوات بعيدة، وإن لم يكن جسديا، فهو موت أخلاقيّ على الأقل، وهكذا كان الحاصل ثلاث ميتات جعلت من «كينكاس» مُحطِّمَ الأرقام القياسية في الموت، وبطلا فذّا في عدد الوفيات، بينما لم يمت «جواكيم» سوى مرّة واحدة منذ عشر سنوات حين هجر المنزل وانضمّ إلى عشرة السوء. وهذا ما يعطينا الحق في أن نعتقد أنّ تلك الأحداث التي وقعت بعد ذلك، بدءا من شهادة الوفاة وصولا إلى الغطس في البحر، ليست سوى مسرحيّة هزليّة كان هو نفسه المخطّط لها قصد إذلال أقاربه مرّة أخرى، وتعكير صفو حياتهم، وتلطيخهم بالعار، وجعلهم مضغة على ألسنة الناس في الشوارع، إذ لم يكن جديرا بالاحترام ولا يستحقّ حتّى المجاملة الكاذبة، على الرغم من الاحترام الذي يكنّه الأصدقاء المقامرون، للاّعب المحظوظ، شرّيب «الكشاسا»[1] الذي يقضي وقتا طويلا في الشرب و الحديث.

في الحقيقة، لست أدري إن كان سرّ ميتة «كينكاس هدير الماء» هذه، أو سرّ ميتاته اللاحقة، سينكشف يوما مّا للعيان، ولكنّني لن أدخّر جهدا في المحاولة، عملا بقول «كينكاس» المأثور: «المهمّ أن نحاول وإن كان في ذلك المستحيل».

---

(1) عَرَقٌ برازيلي تقليدي يعدّ من أقدم المشروبات الكحولية وأشهرها وأكثرها استهلاكا في تاريخ البرازيل. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

II

حسب رأي العائلة، فإنّ الأوغاد الذين يتناقلون لحظات «كينكاس» الأخيرة في الشوارع والمنحدرات، و أمام السوق المركزية أو سوق «أغوا دوس مينينوس» حيث بيعت بطريقة واسعة ورقة صغيرة تضمّنت أبياتا من الشعر الركيك ارتجلها الشاعر «كويكا دو سانتو أمارو» إحياءً لذكرى الفقيد، لم يحترموا بسلوكهم ذاك، روح الميت. ومن المعلوم أنّ روح الميت، شيء مقدّس لا يجوز أن تلوكه ألسنة شاربي «الكَشاسا» الوسخة أو أن يكون مضغة في أفواه المقامرين و مُهرّبي الماريجوانا. ولا يجوز أن نحوّلها إلى أغنية موزونة خالية من كلّ إبداع، يردّدها الفنّانون الشعبيّون على مدخل «أليفادور لاسيردا» حيث يمرّ يوميّا عدد من أفاضل الناس، من بينهم زملاء صهره الذليل «ليوناردو براتو».

حين يموت الإنسان، يحظى آليًّا باحترام النّاس، مهما كانت الحماقات التي ارتكبها في حياته، فالموت يمحو بيد الغياب شوائب الماضي، فتشرق ذكرى الراحل العزيز منزّهة عن الخطإ كإشراقة الماس.

تلك هي نظرية العائلة التي كانت تحظى بإعجاب الجيران والأصدقاء. واعتمادا على النظريّة نفسها أطلّ «كينكاس هدير الماء»، بعد موته، على هيئة «جواكيم سواريس دا كونيا»، ربّ العائلة الطيّب والموظّف المثاليّ في دائرة الضرائب، بحذائه اللاّمع، وذقنه الحليق جيّدا، ومعطفه المصنوع من قماش القرمل، يتأبّط دوما مُذكّرة صغيرة لتدوين المواعيد، ويصغي إليه جيرانه باحترام، حينما يحلو

Twitter: @ketab_n

له أن يعبّر عن آرائه في الطقس أو في السياسة، «جواكيم» الّذي لم يُرَ قطّ في حانات «الكَشاسا» الرخيصة، «جواكيم» الهادئ، والمحبّ لبيته وأسرته.

في الحقيقة، وبفضل مجهود جدير بأعظم آيات المديح من طرف كلّ الحاضرين، استطاعت العائلة أن تجعل روح المرحوم وكأنها تشعّ منذ سنوات دون أن تشوبها شائبة واحدة حتّى لحظة الإعلان عن موته للجميع. وكان الحديث عنه يجري في صيغة الماضي البعيد فقط، إذا ما أجبروا تحت أيّ ظرف من الظروف على الاستشهاد به. ولكن لسوء الحظّ، كان الأمر يبدو مختلفا في بعض الأحيان، لا سيّما حين يتعلّق بأحد الجيران أو بأحد معارف «ليوناردو» وزملائه، أو بصديقة ثرثارة لـ«فندا» (ابنة «كينكاس» المفجوعة) أو بمن يعرفون «كينكاس» جيّدا، بل حتّى بمن سمعوا عنه من معارفهم. عندئذ فقط تقوم جثّة الفقيد من القبر لتدنّس الذاكرة وتلوح على حقيقتها: رجلا نزقًا وصعلوكا تعتعه السُّكر وقد عثر عليه ملقى تحت الشمس في وضح النهار قرب منحدر السوق، و فوضويّا وسخًا، رثّ الثياب، متزهّدا في لعبة الأوراق القذرة في باحة كنيسة «بيلار»، ومتسكّعا يلوك الأغاني السوقيّة بصوت أخنّ في منحدر «ساو ميغيل» مطوّقا بذراعيه إحدى الزنجيات أو الخلاسيّات التعيسات. ولَكَمْ كان ذلك فظيعا!

حين وصل أخيرا في صبيحة ذلك اليوم المشهود بائع التماثيل الدينيّة مهموما إلى بيت عائلة «باريتو» الصغير والمرتّب بعناية في «لاديرا دو طوباو»، وأعلم الابنة «فندا» والصهر «ليوناردو» بأنّ «كينكاس» قد رحل دون رجعة عن هذه الحياة ومات في غرفته البائسة، تنفّس الزوجان الصعداء بعد العبء الكبير الذي كان جاثما عليهما معا.

فمن الآن وصاعدا لن تكون ذكرى الموظف المتقاعد بدائرة الضرائب مُزعِجة ومُلطَّخة في الوحل بفعل السلوكات اللامبالية لهذا

Twitter: @ketab_n

المتشرّد المنحرف في آخر حياته. لقد حان وقت الراحة المستحقّة وصار بالإمكان الآن الحديث بكلّ حريّة عن «جواكيم سواريس دا كونيا» والإشادة بحسن سيرته موظّفًا وزوجًا وأبًا ومواطنًا صالحا، صار مسموحًا تعداد فضائله للأطفال ليكون قدوة لهم ومثَلا أعلى، وبذلك يكبرون على التباهي بذكرى جدّهم دون خوف من أيّ اضطراب.

انطلق بائع التماثيل الدينيّة الناسك العجوز ذو الجسد النحيف والشعر الأبيض كالصّوف تماما، في رواية القصة بالتفصيل:

كان «كينكاس» في صباح ذلك اليوم على موعد مع زنجيّة تبيع «المانغاو»[1] و«الأكاريجيه» و«الأبارا»[2] وغيرها من الأطايب اللّذيذة، وقد وعدها بأن يُحضر لها بعض الأعشاب النادرة الضروريّة لشعائرها وفق طقوس «الكندمبلاي»[3].

جاءت الزنجية لأخذ الأعشاب، بشكل مستعجل، من أجل إحياء الاحتفالات المقدّسة لـ«شانغو»[4] التي ستُقام قريبا. ومثلما جرت العادة، وجدَتْ باب غرفته في أعلى السُلّم مفتوحا، فقد أضاع «كينكاس» منذ مدّة طويلة المفتاحَ الضخم الّذي يعود إلى مائة سنة مَضَت. وفي الواقع يُحكى أنّه باع المفتاح في ليلة نحس على مائدة القمار إلى أحد السوّاح من هواة جمع الآثار، بعد أن نصب له الفخّ بقصّة خياليّة عن تاريخ هذا المفتاح المُبارك، وتفاصيل وصوله إليه أبا عن جدّ بوصفه مفتاحا ضائعا لإحدى الكنائس المقدّسة.

نادته الزنجية، وحين لم تسمع جوابا، ظنّته نائما ودفعت الباب، فرأته مبتسمًا وهو ملقى على سريره البائس بشرشفه الأسوَد القذر،

---

(1) «المانغاو»: عصيدة من دقيق المانيهوت. (المترجم).

(2) «الأكاريجيه» و«الأبارا»: مأكولات تُعدّ أساسا من هريسة الفاصوليا وبعض البهارات، وتُطبخ بزيت النخيل. (المترجم).

(3) «الكندمبلاي»: طقوس العبادة الأفرو-برازيليّة.

(4) «شانغو»: آلهة البروق والرعد في بعض العبادات الأفرو-برازيليّة.

Twitter: @ketab_n

والغطاءُ المُلقى عليه ممزّق يكاد لا يَستُرُ حتّى قدميه. كانت ابتسامتُه ابتسامةَ الترحيب المعهودة، فلم تَرَ في هيئته ما يثير الريبة. سألته عن الأعشاب التي وعدها بها فظلّ مُبتسما دون ردّ. كان إبهام قدمه اليمنى يُطلّ من ثقب الجورب وحذاؤه الممزق مُلقى على الأرض. فجلست الزنجية، وهي صديقة حميمة لـ«كينكاس»، ومعتادة على مزاحه ونكاته، على حافة السرير وأخبرته بأنّها مستعجلة... تعجّبت لأنّه لم يمدّ لها يده الماجنة المتعوّدة على الجسّ والقرص. فحدّقت مرّة أخرى في إبهام قدمه اليمنى الذي وجدته غريبا. ثمّ لمست جسد «كينكاس»، فنهضت وقد تملّكها الذعر، وحين أمسكت يده وجدتها باردة كالثّلج. فنزلت السلالم مسرعة وأذاعت الخبر.

كانت الابنة والصهر يُصغيان، بلا إعجاب، إلى كلّ تلك التفاصيل.. الزنجية والأعشاب، والجسّ والقرص و«الكندمبلاي»، ولمس الجثّة. وكانا يُعربان عن رغبتهما في اختصار الحكاية بهزّ الرأس وكأنّهما يُلحّان عليه لكي ينتهي. ولكنّ بائع التماثيل رجل هادئ وصاحب موهبة في سرد القصص بأدقّ تفاصيلها. وهو الوحيد الذي كان يعرف أنّهما قريبا «كينكاس» حسب الاعترافات الّتي أدلى له بها هذا الأخير في إحدى اللّيالي أثناء حفلة سكر ومجون عامرة.. لذلك أتى إليهما بوجه تغمره ملامح التأثّر والأسى ليقدّم تعازي قلبه الملتاع.

حان موعد ذهاب «ليوناردو» إلى عمله، فقال لزوجته:

- ستذهبين أنت، أمّا أنا فسأتوجّه إلى المكتب، ولن أتأخّر في الوصول. عليّ تسجيل الحضور. ثمّ سأشرح الموقف للمدير...

أذِنَ الزوجان لبائع التماثيل الدينيّة بالدخول وقدّما له كرسيا في الصالون. ذهبت «فندا» لتغيير ملابسها، فراح البائع العجوز يقصّ على مسمع «ليوناردو» كلّ ما يعرفه عن «كينكاس». لا وجود في منحدر «طوباو» لشخص لا يحبّه. فلِمَ سلّم نفسه إلى حياة التشرّد تلك، وهو

Twitter: @ketab_n

رجل من عائلة محترمه، ذات نفوذ؟ ذلك ما توصل إليه بائع التماثيل بعد أن كان له شرف تبادل الحديث مع ابنته و صهره. فهل حدث في البيت العائليّ ما عكّر صفو حياته؟ هكذا كان الأمر ولا شكّ. ربّما خانته زوجته أو حمّلته ما لا يُطاق، فهذه الأمور كثيرا ما تقع. ثمّ وضع سبابته على صدغه حائرا وكأنّه يسأل نفسه: هل وضع إصبعه على الجرح؟

- حماتي «دونا أوتاسيليا»، كانت امرأة فاضلة، كانت قدّيسة!

ففرك بائع التماثيل ذقنه وتساءل ثانية:

- لماذا إذن؟

و لكن «ليوناردو» لم يجب، بل ذهب للردّ على «فندا» التي كانت تناديه من غرفتها.

- هل علينا الإعلام...

-الإعلام؟ من؟ ولماذا؟

-العمة «ماروكاس» والعم «إدواردو»... والجيران. علينا أن ندعوهم لحضور مراسم الدفن...

-لماذا نعلم الجيران على الفور؟ يمكننا إعلامهم بعد الدفن، وإلاّ فإنّهم سيجدون الفرصة لثرثراتهم الهائلة.

- و لكن العمة «ماروكاس»...

- سأتّصل بها وبـ«إدواردو»... بعد الذهاب إلى المكتب. أسرعي وإلاّ وصل هذا العجوز قبلك هناك وأشاع الخبر في كلّ مكان...

- من كان يتصوّر... أن يموت هكذا دون أن يكون إلى جانبه أحد...

- ومن المذنب؟ إنّه هو نفسه، هذا المجنون...

في الصالون كان بائع التماثيل الدينيّة يتأمّل بإعجاب صورةً ملوّنة قديمة لـ«كينكاس»، عندما كان في الخامسة عشرة، كان شابا في أبهى

Twitter: @ketab_n

مظهر؛ بربطة عنق سوداء، وشوارب محفوفة، وشعر لامع وخدّين ورديّين. وإلى جانب هذه الصورة وفي إطار مُماثل كانت النظرة الثاقبة و الفم الحازم، إنّها «دونا أوتاسيليا» في فستان أسود، من تلك الفساتين المؤجّرة.

تفحّص بائع التماثيل ملامحها الصارمة:

- لا يبدو عليها أنّها يمكن أن تخون زوجها... ولكنّها تبدو، في المقابل، عظمًا صعب الكسر... أمّا خرافة المرأة القديسة. فلا أعتقد ذلك...

Twitter: @ketab_n

III

حين وصلت «فندا» لم يكن هناك سوى عدد قليل من أهالي «منحدر السوق» يتفرّسون في الجثمان بأعين دامعة. فنبّههم بائع التماثيل الدينيّة بصوت خافت:

- هذه ابنته. وعنده كذلك صهر وأخ، وأخت. وجميعهم من الذوات. الصهر موظف ويسكن في «إيتاباجيب» في منزل فخم...

وابتعدوا قليلا ليتركوها تمرّ وكلّهم فضول بأن يروها ترتمي على الجثمان، تعانقه، وتغرق في البكاء وربما تنفجر بالنحيب، بينما كان «كينكاس هدير الماء» مُلقى على سريره الحقير، ببنطاله البالي المسكون بالرّقع، وقميصه الممزّق، وكنزته الكبيرة القذرة، يبتسم وكأنّ كلّ ما يحدث ليس سوى مزحة تزيد في إمتاعه.

وقفت «فندا» صامتة بلا حراك تحدّق في الوجه.. في الذقن غير الحليق.. في اليدين الوسختين.. وفي الإبهام الضخم وهو يطلّ من الجورب المثقوب. لم يكن لديها مزيد من الدموع لتذرفها ولا تنهدات تملأ بها الغرفة، فقد بدّدت هذه الدموع بصورة خاسرة تماما حين حلّق عقل «كينكاس» بعيدا وبدأ أعماله الجنونيّة رغم محاولاتها العديدة لتعيده إلى بيته المهجور. وها هي الآن تكتفي بمجرّد النظر إليه ووجهُها مليء بالإحراج.

كان ميتًا عديم اللياقة، لا يمكن مقارنته بأيّ ميت آخر، مجرّد جثّة لمتشرّدٍ مات مصادفة بلا احترام ولا وقار. وكان يبتسم في وجهها بوقاحةٍ ساخرا منها ومن «ليوناردو» دون شكّ، ومن سائر أفراد

Twitter: @ketab_n

العائلة... جثة جديرة بأن تُلقى على المشرحة وتأخذ في سيارة الشرطة إلى طلبة كليّة الطبّ لاستغلالها في الدروس التطبيقية قبل أن تُرمى في النهاية داخل حفرة تافهة بلا نعش ولا ضريح، ودون صليب ولا شاهدة. كانت تلك جثة «كينكاس هدير الماء»، السكّير، الفاسق، المقامر، المنشقّ عن العائلة والهائم على وجهه بلا ملاذ، وهكذا كانت مُلقاةً بلا أكاليل زهور ولا صلوات.

لم يكن ذلك «جواكيم سواريس دا كونيا» الموظف المستقيم في دائرة الضرائب الّذي أحيل على التقاعد بعد خمسة وعشرين عاما من التفاني في العمل والإخلاص له، والزوج النموذجي الذي كان الجميع يرفعون له القبعة تقديرا وإجلالا ويشدّون على يديه. فكيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت وعادات حياة بأكملها؟ أن يهجر معارفه القدامى ليتشرّد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، متهافتا على المومسات، سائبَ اللّحية متّسخا يعيش في حظيرة وينام على فراش بائس؟ إلى هذه اللّحظة لم تجد «فندا» جوابا واحدا يقنعها بذلك.

لطالما كانت في الليالي الطويلة تُسرّ إلى زوجها بكلّ تلك الهواجس، ولا سيّما بعد وفاة أمّها «أوتاسيليا»، وحتّى في هذه المناسبة المهيبة لم يعد «كينكاس» إلى البيت لمؤازرة أهله. أهو جنون؟ لم يكن ذلك جنونا، أو على الأقلّ فإنّه لم يكن الجنون الّذي يتطلّب وضعه في مستشفى الأمراض العقليّة، وذلك ما أجمع عليه كلّ الأطبّاء. فكيف إذن يمكن تفسير مثل هذه التصرّفات؟

أمّا الآن فقد انتهى كلّ شيء، انتهت كوابيس السنوات الماضية وانتهت لطخة العار في تاريخ العائلة.

لقد ورثت «فندا» عن أمّها خبرةً عمليّةً عالية وسرعةً فائقة في

Twitter: @ketab_n

اتّخاذ القرارات وتنفيذها مباشرة. لذلك كانت تنظر إلى الميت، هذه الصورة الكاريكاتوريّة المزعجة التي تُدعى أباها، وتفكّر في الوقت ذاته في القرارات الواجب اتّخاذها.

ينبغي، أوّلا، استدعاء الطبيب الشرعيّ للحصول على شهادة الوفاة، ثمّ لفّ الجثمان في ملابس لائقة وأخذه إلى البيت ودفنه إلى جانب «أوتاسيليا»، في مأتم متواضع لا يكلّف كثيرا، فالظروف صعبة هذه الأيام، ولكن عليها القيام باللازم لكي تتجنّب الإحراج أمام الجيران والمعارف وزملاء «كينكاس». وعلى كلّ حال فالعمّة «ماروكاس» والعمّ «إدواردو» سيعينانها على ذلك.

وفي الوقت ذاته و عيناها مثبتتان على وجه «كينكاس» الضاحك، فكّرت أيضا في مصير تقاعد والدها. فهل سيرثونه أم سيحصلون فقط على جعالة شركة التأمين على الحياة؟ ربّما «ليوناردو» يعرف هذه الأمور..

والتفتت إلى الفضوليين الّذين ما زالوا يحدّقون فيها، كانوا من بسطاء «طوباو»، من روّاد الحانات الحقيرة، ومن حثالة الأوباش الّذين كان «كينكاس هدير الماء» ينعم برفقتهم. أولئك الرعاع ماذا يفعلون هنا؟ إنّهم لا يصدقون أنّ «كينكاس هدير الماء» قد انتهى من الوجود تماما حين أطلق زفرته الأخيرة دون رجعة؟ وأنّه لم يكن سوى ابتكار من ابتكارات الشيطان؟ مجرّد حلم مزعج، وكابوس؟

أمّا «جواكيم سواريس دا كونيا» فَسَيعُود وهو في كامل الاحترام للالتقاء بأهله من جديد، في رَفاه منزل محترم. لقد حانت ساعة العودة و لم يعد في وسع «كينكاس» هذه المرة أن يضحك في وجه ابنته و صهره، أو أن يرسلهم لزراعة البطاطا، وأن يودّعهم ساخرا ويرحل وهو يصفّر. إنّه الآن ممدّد، بلا حراك ولا أنفاس، على فراشه البائس

Twitter: @ketab_n

الحقير. نعم، لقد انتهى «كينكاس هديَر الماء».

رفعت «فندا» رأسها وجالت بنظرها الحازم بين الحضور وأمرت بذلك الصوت الّذي ورثته عن «أوتاسيليا»:

- هل تريدون شيئاً؟ إن كنتم لا تُريدون شيئاً فبإمكانكم الانصراف.

ثمّ توجّهت إلى بائع التماثيل الدينيّة.

- هل تتفضلّ حضرتك باستدعاء الطبيب من أجل شهادة الوفاة؟

فأجاب الرجل الطيّب موافقا بتحريك رأسه، وخرج والتأثّر الشديد بارز على ملامحه، بينما كان الآخرون ينصرفون متمهّلين، لتبقى «فندا» وحيدة مع الجثّة الّتي لم تكن لتكفّ عن الابتسام... وقد بدا إبهام قدمها اليمنى الضخم أكثر تضخّما وكأنّه كان ينمو في ثقب الجورب.

Twitter: @ketab_n

IV

بحثت حولها عن شيء تجلس عليه. فلم تجد، علاوة على السرير، سوى صفيحة «كيروزين» فارغة. رفعتها، ثمّ مسحت عنها الغبار وجلست تحدّث نفسها:

تساءلت في البداية عن الوقت الّذي يمكن أن يستغرقه الطبيب للوصول إلى هنا، ثمّ راحت تتخيّل «ليوناردو» وهو يروي، بإسهاب حادثةَ موت والدها المفاجئة، لمديره الّذي سبق له أن تعرّف إلى «جواكيم» في تلك الأيام السعيدة، حين كان يعمل في دائرة الضرائب. «لكن من لم يعرفه؟ ومن لم يحترمه في تلك الأيّام؟ وهل كان يمكن لأحدهم أن يتوقّع له مثل هذا المصير؟» واستطردت مستسلمة لتخيّلاتها: «من المؤكّد أنّ «ليوناردو» يجتاز الآن لحظة عصيبة صعبة وهو يحاول أن يشرح لمديره بإسهاب سرّ الطريق الّذي سلكه هذا الرجل العجوز الأخرق في آخر أيّام حياته.. والأسوأ من ذلك لو انتشر الخبر بين زملائه، فحينها ستبدأ النميمة في الانتقال من طاولة إلى أخرى وتمتلئ الأفواه بابتسامات الرياء والنكت الفاضحة والتعليقات السوداء.

حقّا إنّ احتمال ممارسات مثل هذا الأب هو تضحيةٌ أرهقت كاهلهم، وصليبٌ حملوه في صعودهم إلى الجلجلة، ولكنّهم شارفوا الآن على قمّة الجبل، وما عليهم سوى قليل من الصبر..

ألقت «فندا» نظرة من طرف عينيها على الميّت، فوجدته ما يزال يبتسم وكأنّه يرى كلّ ما يحدث حوله مُسلّيا بشكل لا نهائيّ.

Twitter: @ketab_n

أليس الغضب من الموتى خطيئة كبرى؟ فلماذا نحشو رؤسنا بالأفكار السيّئة عنهم، لا سيّما إذا كان هذا الميّت أباك. حينها تمالكت «فندا» نفسها، إنّها امرأة تقيّة، ترتاد كنيسة «النهاية السعيدة» بانتظام، تميل أكثر إلى الروحانيّات، وتعتقد في تناسخ الأرواح. ومهما يكن من أمر، فإنّ ابتسامة «كينكاس» لم تعد تعني لها أيّ شيء، فهي الممسكة بزمام الأمور الآن، وعمّا قريب لن تبقى منه غير روحه الّتي ستُبعث ثانية متجسّدة في الكائن الوديع والمواطن المسالم «جواكيم سواريس دا كونيا» المنزّه عن كلّ خطإ.

عاد بائع التماثيل الدينيّة مصحوبا بالطبيب، كان شابا والأكيد أنّه حديث التخرج، ذلك أنّ الاضطراب كان واضحا على ملامحه وهو يُجهد نفسه ليبدو في مظهر المُحترف الكُفْء. أشار بائع التماثيل إلى الميت، فيما قدّم الطبيب نفسَهُ إلى «فندا»، ثمّ فتح حقيبته الجلديّة اللامعة. فقامت «فندا» ودفعت جانبا صفيحة «الكيروزين».

- بأيّ شيء مات؟

وقام بائع التماثيل الدينيّة بالإيضاح:

- لقد عُثر عليه ميتا كما هو الآن..

- هل كان يعاني من مرض ما؟

- لا أدري، لا أدري يا سيدي. أعرفه منذ حوالى عشر سنوات وكان دائما سليما كالثور. إلاّ إذا كان الدكتور يُسمّي...

- ماذا؟

-... يُسمّي «الكشاسا» مرضا. كان فنّانا في البلع.. يرفع مرفقه قليلا ويلقي بما في الكأس دفعة واحدة.

سعلت «فندا» مستاءة. فتوجّه الطبيب إليها:

- هل كان يعمل عندك يا سيّدتي؟

Twitter: @ketab_n

سادت لحظة وجيزة من الصمت الثقيل. ثمّ جاء الصوت من بعيد:

- إنه أبي.

كان الطبيب شابًا لم يختبر الحياة بعد، فقاس بنَظَرِه «فندا» بلباسها الأنيق الأشبه بثياب أيّام العيد، ونظافتها الساطعة، وكعبيها العاليين. ثمّ راح يتأمّل فقر الميّت المُدقع وغرفتَه البائسة العطنة.

- وهل كان يعيش هنا؟

-فعلنا كل شيء من أجل أن يعود إلى البيت. لقد كان...

- مجنونا؟

فتحت فندا ذراعيها وقد تملّكتها رغبة في البكاء. لكنّ الطبيب لم يُلحّ. بل جلس على حافة السرير وبدأ الفحص. ثمّ رفع رأسه وقال:

- انظروا كيف يضحك! ههه... إنّه يسخر منّا بوجهه الخليع...

فأغمضت «فندا» عينيها وضغطت على يديها ووجهُها يكاد يقطر حُمرةً من الخجل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

V

لم يدم مجلس العائلة زمنا طويلا. جرت المناقشة في مطعم «بايشا دو سباتيرو» المواجه مباشرة لقاعة السينما، في الشارع المزدحم حيث كانت الحشود تمرّ مسرعة ومبتهجة، بينما كانت العائلة تتشاور في ترتيبات الدفن. وقد تقرّر أن يُوكل أمر الجنازة إلى وكالة مختصّة في دفن الموتى، وهي ملك لأحد أصدقاء العمّ «إدواردو» وعَدَهُم بحَسْم 20 % من النفقات.

وحسب إيضاحات العمّ «إدواردو» فإنّ التابوت هو الأكثر كلفة، وكذلك السيّارات، أمّا إذا كان في موكب الجنازة حشد كثيف من المُشيّعين، فذلك يكلّف ثروة! في هذه الأيّام لم يعد بمقدروك حتّى أن تموت!

اشتروا بذلة جديدة سوداء من محلّ قريب من هناك، (لم يكن قماشها يساوي شيئا، ولكنّه على حدّ عبارة «إدواردو» فاخر أكثر من اللازم ما دام سيصبح طعاما للدّيدان) كما اشتروا حذاءً أسود، وقميصًا أبيض، إضافة إلى ربطة عنق وجوربيْن. أمّا الملابس الداخليّة فلا حاجة إليها.

لم يفوّت العم «إدواردو» صنفا واحدا من هذه المقتنيات إلاّ وسجّله في دفتر صغير. فهو خبير في الاقتصاد وحسن التدبير ودكّان بقالته في ازدهار مستمرّ.

بعد ذلك كان «كينكاس هدير الماء» بين أيدي المختصين في وكالة الدفن، يعود شيئا فشيئًا إلى «جواكيم سواريس دا كونيا»، فيما كان

Twitter: @ketab_n

الأقارب في المطعم يتناولون السمك، ويتناقشون في موضوع الدفن. وفي الحقيقة لم يصر نقاشا بأتمّ معنى الكلمة إلاّ حين تعلّق الأمر بالمكان الّذي ستوضع فيه الجثّة.

فكرت «فندا» في أخذ الجثمان إلى البيت وقبول التعازي في الصالون حيث تُقدَّم القهوة والمشروبات والحلويّات للحضور طوال السهرة. وفي الصباح الباكر يُستدعى الأب «روك» لتلاوة صلاة الجنازة ويتحرّك الموكب كي يتمكّن أكبر عدد من الناس من المجيء ولا سيّما زملاء العمل والمعارف القدامى وأصدقاء العائلة. ولكنّ «ليوناردو» عارض الاقتراح. لماذا ينبغي نقل الجثمان إلى البيت؟ ولماذا ندعو الجيران والأصدقاء ونحرج الناس من أجل لا شيء؟ فلن يكون ذلك إلاّ ذريعة ليتذكّر كلّ هؤلاء جنون هذا العجوز السافل وحياته الشاذّة البائسة خلال السنوات الأخيرة وينشروا عار العائلة أمام العالم كلّه! وذلك تحديدا ما وقع له في المكتب هذا الصباح، فقد راح كلّ ملعون يعرف قصّة عن «كينكاس» يرويها ضاحكًا مُقهقها، إلى درجة أنّه هو «ليوناردو» بالذّات، لم يكن يتوقّع يوما أنّ حمَاهُ قد ارتكب هذا العدد المُريع من الحماقات، فكلّ حكاية كانت كافية وحدها بأن تجعل شعر رأسه يقف هلَعًا... علاوة على أنّ كثيرا من الناس يعتقدون أنّ كينكاس مات ودُفِن، وهو يعيش الآن في مكان ما من أعماق مدينة «باهيا». والأطفال؟ ألم تفكّروا فيهم؟ لماذا نسمّم في رؤوسهم الذكرى الجميلة لجدّ مثاليّ تنام روحه مطمئنّة سالمة في رحاب الله، فيأتي الأبوان بغتة بجثمان متشرّد على الأكتاف ويلقيانه في وجه هؤلاء الأبرياء المساكين؟

هذا، دون الحديث عن الجهد الكبير في افتعال الحزن والتظاهر بالتأثّر الشديد، وعن هذه المصاريف الّتي لا تكفّ عن الارتفاع وكأنّه لا تكفيه مصاريف الدفن والبذلة الجديدة وزوج الأحذية. لقد كان هو،

Twitter: @ketab_n

«ليوناردو»، في حاجة إلى زوج من الأحذية ومع ذلك فقد أصلح حذاءه البالي تماما عساه يوفّر شيئا مّا، والآن، بعد كلّ هذه النقود الملقاة من النافذة، كيف يمكنه مجرّد التفكير في حذاء جديد؟

ولقد شاطرته «العمّة ماروكاس» الموقف نفسه دون أن تتوقّف عن التلذّذ بسمك المطعم، ثمّ أوضحت:

ـ الأفضل أن نشيع خبرا يُفيد بأنّه مات خارج المدينة ودُفن هناك، وأنّنا تلقّينا برقيّة بهذا المعنى. ثمّ ندعو النّاس إلى قدّاس اليوم السابع بعد الدفن، وحينها يمكن لمن يشاء أن يحضر. فنحن غير مجبرين على فعل كلّ شيء.

فقالت «فندا» وقد توقّفت شوكتُها في منتصف الطريق إلى فمها:

– رغم كلّ ما فعل فهو أبي ولا أريد أن يُدفن مثل متشرّد حقير. هل كنتَ ستوافق على ذلك لو أنّه كان والدكَ يا «ليوناردو»؟

لم يكن العمّ «إدواردو» رجلا عاطفيّا فقال بوضوح:

– وماذا كان إذن؟ ألَمْ يكن متشردا؟ بل ومن أسوإ متشرّدي باهيا. لا أستطيع أن أنكر ذلك حتّى وإن كان المعنيّ أخي...

وتجشّأت العمة «ماروكاس»، بعد أن ضربت التُخمة بطنها وقلبها معا:

– يَا لَـ«جواكيم» المسكين ... كان رجلا طيّبا. ولم يُسئ إلى أحد. لقد تملّكه حبّ جارف لحياة التشرّد هذه، وكأنّها كانت قَدَرهُ منذ الصغر. ألا تذكر ذلك يا «إدواردو»؟ في إحدى المرّات كان يريد أن يرحل مع جماعة السيرك؟ وحينها سُلخ سلخا من شدّة العقاب.

ولطمت العمّة «ماروكاس» «فندا» التي كانت جالسة إلى جانبها لطمةً على فخذها وكأنّها تعتذر لها، ثمّ أردفت:

– و أمُّك يا صغيرتي، كانت متسلّطة بعض الشيء. أذكرُ أنّه فرّ بعيدا ذات يوم، وحين عاد قال إنّه يريد أن يكون حرا كعصفور. وفي

Twitter: @ketab_n

الحقيقة كم كان ظريفا.

ولكن لا أحد من الحاضرين وجد في كلامها ما يدلّ على الظرافة وخفّة الظلّ حتّى أنّ «فندا» قطّبت حاجبيها مستغربة وعادت إلى الهجوم:

- لست أحطّ من شأنه إذا قلت: إنّه سبّب لنا كثيرا من الألم والمعاناة وخاصّة لـ«ماما» الّتي كانت امرأة طيّبة، دون الحديث عن «ليوناردو».. و لكنّني لن أسمح رغم كلّ شيء بدفنه مثل كلب بلا صاحب. ماذا سيقول النّاس حين يعلمون بذلك؟ لا أحد يمكنه أن ينكر أنّه كان شخصا محترما قبل أن يسكنه الجنون. ولا بدّ أن يُدفن بشكل محترم.

رمقها «ليوناردو» بنظرة متوسّلة، كان يعلم أنّه لا فائدة في النقاش مع «فندا» وأنّها تنتهي دائما بفرض وجهات نظرها وإرادتها، وكذلك كان شأن «أوتاسيليا» مع «جواكيم» حتّى جاء اليوم الّذي قال فيه لكلّ شيء: «إلى الجحيم» ثمّ هجر البيت.

إذن، لا فائدة من النقاش، سوف تُجرّ الجثّة إلى المنزل وسيتمّ إعلام الجيران والأقارب والأصدقاء ويُستدعى الناس بالهاتف كي يقضي هو «ليوناردو» ليلة كاملة بلا نوم، يستمع إلى القصص عن «كينكاس» ويتحمّل المجاملات الزائفة والابتسامات الخبيثة وغمزات الأعين الساخرة.. ويظلّ على هذه الحال إلى أن تُختتم السهرة.. هذا ما جناه عليه حَمُوه الّذي طالما سمّم حياته وسبّب له أكبر المضايقات حتّى أنّه كان يعيش تحت وطأة الخوف من وقوع مصيبة أخرى من مصائب هذا العجوز، فلم يتصفّح جريدة إلاّ تملّكه الخوف من قراءة خبر عن إيقاف «كينكاس» جرّاء التشرّد كما حصل ذات مرة، لم يعُدّ يريد تذكّرها إلى الآن، حين لم يجد الوقت ليخبر «فندا» بما قرأه في الجريدة وخرج لتوّه يبحث في مراكز الشرطة وكلّ مركز يرسله إلى

Twitter: @ketab_n

الآخر، إلى أن عثر في النهاية على «كينكاس» في قبو السجن المركزيّ، حافيَ القدمين، بملابسه الداخليّة، وهو يلعب البوكر بكلّ طمأنينة وسلام مع اللّصوص والمجرمين. وبعد إجراءات عديدة خرج بكفالته. وحين تصوّر أخيرًا أنّه سيتنفّس الصعداء، وجد نفسه يتحمّل هذه الجثّة في ضيافته طوال يوم وليلة بين جدران بيته...

العمّ «إدواردو» لم يكن موافقا هو أيضا، لقد تكفّل بجزء من المصاريف وينبغي أن يكون رأيه مسموعا، فقال مخاطبا «فندا»:

- حسنا، يا «فندا» كما ترغبين.. فليدفن مثل مسيحيّ جيّد بتابوت وبذلة جديدة وأكاليل من الزهور وجنّاز صلاة.. وإن كان لا يستحقّ شيئا من هذا، ولكنّه في النهاية أبوك.. وهو أخي.. هذا كلّه جميل جدّا، ولكن لماذا نحشر المرحوم في المنزل؟

- أجل! لماذا؟

هكذا ردّد «ليوناردو» مثل الصدى.

- ... لماذا نحرج نصف العالم؟ ونضطر إلى استئجار ستّ سيّارات أو ثمان على الأقل؟ هل تعرفين كم تكلّف السيّارة الواحدة؟ وكم يكلّف نقل الجثمان من «طوباو» إلى «إتاباجيب» ؟ سيكلّف ذلك ثروة بلا شكّ. لماذا لا تخرج مراسم الدفن من هنا بالذات؟ ونذهب نحن في تشييعه. وهكذا فإنّ سيارة واحدة تكفي. وبعدها إن كنتم ترون في المسألة أهمية كبرى، ندعو الناس إلى قداس اليوم السابع.

-ونعلن أنّه مات خارج الولاية.

أكملت العمّة ماروكاس الفكرة متمسّكة باقتراحها السابق. فأجابها:

- هذا ممكن تماما، ولمَ لا؟

- ومن الّذي يسحضر سهرة المأتم؟

-نحن فقط.. لماذا نحتاج إلى شخص آخر؟

Twitter: @ketab_n

انتهى الأمر بـ «فندا» إلى الرضوخ، وفي الحقيقة فقد كانت مقتنعة في قرارة نفسها بأنّ فكرة نقل الجثّة إلى المنزل فكرة عبثيّة. ولن يؤدّي ذلك إلاّ إلى مزيد من النفقات والمتاعب. الأفضل إذن، أن يُدفن في إطار عائليّ محض، ثمّ يُدعى الناس لاحقا إلى قدّاس اليوم السابع. وهذا ما تقرّر فعلا.

انتهى الطعام فطلبوا الحلويّات، بينما كان مكبّر صوت ينهق في الخارج معلنا عن عروض بيع رائعة تقدّمها شركة محليّة للعقارات.

Twitter: @ketab_n

VI

عاد العم «إدواردو» إلى دكّانه، فهو لا يريد أن يتركه تحت رحمة أولئك الأوغاد عُمّاله اللصوص. ووعدت العمة «ماروكاس» بالعودة مساءً لحضور مراسم التوديع. كان ينبغي أن تعود بسرعة إلى بيتها بعد أن تركت كلّ شيء فيه مقلوبا رأسا على عقب بمجرّد أن بلغها خبر الموت. وسيكرّس «ليوناردو»، بنصيحة من «فندا» نفسها، وقتَ فراغه بعد الظهر للذهاب إلى مقرّ الوكالة العقاريّة ليؤجّل دفع قسطه في قطعة أرض صالحة للبناء. لقد اشتريا هذه الأرض بالتقسيط وفي يوم ما سيكون لديهما، بفضل مساعدة الرب، منزلهما الخاص.

لقد قرروا توزيع الأدوار في السهر على الميّت بشكل تتابعي: «فندا» و«ماروكاس» بعد الظهر و«ليوناردو» والعم «إدواردو» في الليل. إذ لا وجود لسيّدة محترمة واحدة قد تتجرّأ على الظهور ليلا عند «منحدر طوباو» وهو مكان سيّئ السمعة لا يرتاده غير المجرمين والعاهرات. أمّا في صباح الغد فإنّ العائلة كلّها ستجتمع من أجل مراسم الدفن.

وهكذا وجدت «فندا» نفسها في عصر ذلك اليوم وحيدة مع جثمان الميّت. تناهى إلى سمعها ما إن وصلت إلى الطابق الثالث صخب حياة الفقر الّذي كان يتصاعد من المنحدر إلى أعلى ذلك البناء الوسخ حيث سُجّي «كينكاس» ليرتاح قليلا بعد العناء الّذي مرّ به أثناء تغيير ثيابه وتجهيزه بعناية وإتقان.

لقد كان رجال وكالة الدفن يعرفون أسرار عملهم جيّدا، فحقّقوا إنجازا كبيرا حتّى أنّ بائع التماثيل الدينيّة الّذي ظهر ليرى كيف تسير

Twitter: @ketab_n

الأمور لم يتمالك نفسه عن الهتاف: «هذا الميّت شخص آخر».

كان الميّت ممشّطَ الشعر، حليق اللّحية، يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض وربطة عنق جديدة وينتعل حذاءً لمّاعا. "هذا هو حقّا «جواكيم سواريس دا كونيا» النائم في تابوت يليق بملك" هكذا علّقت «فندا» في قرارة نفسها وهي تراقب بارتياح مقابض التابوت المذهّبة وجوانبه المُوشّاة بالدانتيل. لقد أعدّوا بواسطة بعض الألواح الخشبيّة ما يشبه الطاولة، وضعوا عليها النعش هادئا ونبيلا، وأضيئت إلى جانبه شمعتان طويلتان تُشعّان بنور خافت يكاد لا يقوى على الصمود في وجه أضواء مدينة «باهيا» المتسلّلة من النافذة. كلّ هذا النور.. بل كلّ هذا الإشراق السعيد، كان يبدو في نظر «فندا» وكأنّه يُهين الموت بجعله الشمعتين المرتعشتين بلا فائدة وبلا وميض. فكّرت لحظة في إطفائهما بُغية التوفير، ولكن مادامت الوكالة تقبض المبلغَ نفسَه سواء استهلكوا شمعتين أو عَشْرًا، فقد اكتفت بإغلاق النافذة. وهكذا غرقت الغرفة في العتمة وانبعثت ألسنة اللهب المقدّس بوضوح.

جلست «فندا» على الكرسي الّذي أعارها إيّاه بائع التماثيل الدينيّة، وهي تشعر بالارتياح ليس فقط لأنّها أدّت واجبها كابنة، بل لسبب آخر أعمق بكثير... فتنفّست الصعداء وسوّت بيديها شعرها الكستنائيّ. لقد ساورها الإحساس بأنّها نجحت أخيرا في ترويض «كينكاس»، وبأنّها تمسك بعنانه من جديد، هذا العنان الّذي انتزعه يوما مّا من قبضة «أوتاسيليا» القويّة، وسخر منها.

ولاح ظلّ ابتسامة على شفتي «فندا» الجميلتين والساحرتين حين تتخلّى عن ابتسامتها الصارمة، وهي تشعر بأنّها انتقمت لأمّها من كلّ ما حمله «كينكاس» لعائلته من مصائب وآلام، ولأمّها «أوتاسيليا» بصورة خاصّة سنوات وسنوات حتّى كاد يغدو سلوكه إذلالا لا نهاية

Twitter: @ketab_n

له... عشر سنوات من البوهيميّة والعبث عاشها «كينكاس» بطُمّها وطميمها، ما انفكّوا يطلقون عليه خلالها لقب «ملك متشرّدي باهيا» في كلّ مكان، في الشوارع وفي الزوايا المخصّصة للشرطة على أعمدة الصُحف حتّى أصبح اسمُه مُضغة على كلّ لسان، وغدا بعض الكُتّاب التافهين المتعطّشين إلى الأخبار الغريبة السهلة، يصوّرونه في زاوياهم أنموذجا مختزَلا لكلّ أبناء الشوارع. عشر سنوات قضّاها وهو يلطّخ عائلته بالعار، ويُوقعها في أوحال شهرته اللّعينة: «شرّيبُ الكشاسا في سلفادور»، و«فيلسوفُ منحدر السوق الرثّ»، و«سيناتور التسكّع والحانات»، و«كينكاس هدير الماء»، و«المتشرد بامتياز»... وغيرها وغيرها من الألقاب التي كانت تُطلق عليه في الصحف مرفوقة في كثير من الأحيان بصورته القذرة.

يا إلهي! أيّة معاناة على البنت أن تتحمّل في هذه الدنيا، حين يكون الصليبُ الّذي أعدّه القدر لها والدًا ليس لديه وعي بواجباته؟

لذلك فإنّها تشعر بالسعادة الآن وهي تنظر إلى الجثة الساكنة في تابوت شبه فاخر، ببذلتها السوداء ويديها المتصالبتين على الصدر في حالة من الورع والندم، وحذائها الجديد اللاّمع تحت شعاع الشمعتين... كان كلّ شيء لائقا ما عدا الغرفة، طبعا. وياله من عزاء لمن تعذّب كثيرا. تخيّلت «فندا» «أوتاسيليا » والسعادة تغمرُها هناك في غياهب الكون البعيد حيث ترقد روحها لأن أمنيتها تحقّقت أخيرا، فلقد أعادت ابنتُها ذلك المجنون إلى الرشد فرجع مرّة أخرى «جواكيم سواريس دا كونيا» الرجلَ الطيّب الخجول، والأبَ المثاليّ والزوج المطيع الّذي يكفي أن ترفع صوتها أمامه ليخفي وجهه ويعود عاقلا متصالحا معها من جديد.

ها هو ذا إذن ويداه متصالبتان على صدره... أمّا «المتشرّد

Twitter: @ketab_n

بامتياز»، «سيناتور التسكّع والحانات» و«بَطْريق أوساط الدعارة السفلى» فقد مات ورحل إلى الأبد. رحل لسوء الحظّ ولم يرَ نفسه في المرآة لكي يكون شاهدا على انتصار ابنته وأفراد عائلته الكريمة، بعد كلّ ما سبّبه لهم من الذلّ والهوان.

في هذه اللّحظة الحميمة من الرضى العميق، والزهو بالانتصار، كانت «فندا» تشعر بالطيبة والسخاء، فأرادت أن تنسى السنوات العشر الماضية، كما لو أنّ رجال وكالة دفن الموتى قد طهّروها بواسطة الخرقة المبلّلة بالماء والصابون، الخرقة نفسها التي استخدموها لتخليص جسد «كينكاس» من أوساخه. ولم تكن تريد أن تتذكّر سوى أعوام طفولتها وشبابها وفترة خطبتها وزواجها، والطّيف الوديع لـ«جواكيم سواريس دا كونيا»، شبه المختفي في كرسي من القماش غارقا في قراءة جريدته، لا يصحو من غيبوبته تلك إلاّ حين يأتيه صوت «أوتاسيليا» بلهجة تأنيب: «جواكيم»! فيتوقّف عن القراءة ويهبّ واقفا.

على هذه الصّورة كانت تحبّ أن تتذكّره وتشعر نحوه بالحنان. هذا هو الأب الّذي تشتاق إليه، وبقليل من الجهد الإضافيّ في العودة إلى الوراء بإمكانها أن تتأثّر أكثر كأن تشعر بأنّها يتيمة مسكينة ولا شيء يقدر على تعزيتها.

كانت وطأة الحرارة تشتدّ في الغرفة أكثر فأكثر بعد أن أُغلقت النوافذ، ولم يجد النسيم البحريّ فتحة يتسلّل منها... لكنّ «فندا» لم تكن تريد ذلك النسيم، ولا البحر، ولا المرفأ، ولا المسالك الجبليّة المرتفعة، ولا تريد حتّى مجرّد الحديث عنها، فقد صارت كلّها لحظة غابرة من تلك الحياة الرديئة الغابرة.

هنا لا مكان إلاّ لها ولوالدها الميّت الفقيد «جواكيم سواريس دا

Twitter: @ketab_n

كونيا»، ولهذه الذكريات الجميلة النادرة التي خلّفها لها... كانت تنتزع من أعماق ذاكرتها صفحات منسيّة منها: تذكّرته حين كان يرافقها إلى ساحة الجياد الخشبيّة في «ريبيرا» بمناسبة عيد «البونفيم». كان مرحا طيّبا أكثر من أيّ وقت مضى، وحين رفعها على ظهر الحصان الخشبيّ، جلجلت ضحكتُه هو الّذي لم يكن يبتسم إلاّ نادرا، فما بالك بالضحك؟ وتذكّرت أيضا الاحتفال الصغير الّذي أقامه له حشد من الزملاء والأصدقاء بمناسبة ترقيته في إدارة الضرائب. كان المنزل يعجّ بالمدعوّين، وكانت هي «فندا» في بداية أيّام شبابها تتهجّى للتوّ مغازلات الشبّان. في ذلك اليوم، كادت «أوتاسيليا» تنفجر من البهجة والسرور وسط الجموع الموجودة في الصالون تحت تأثير البيرة والخُطَب الجميلة التي ألقيت بالمناسبة. يومها قُدّم للموظّف الناجح المُحتفى به قلمُ حبر علامةً على التقدير المتناهي والاحترام الشديد فدخلت والدتها في غيبوبة من الزهو والحبور وكأنّها هي التي تمّ تكريمها.. أمّا «جواكيم» فكان يُنصت إلى الخُطب، ويُصافح الأيدي الممدودة، مُمسكا بالقلم دون اكتراث، وكأنّه سئم كلّ هذا التملّق دون أن يجرؤ على قول ذلك.

تذكّرت أيضا ما قاله لها والدها حين أخبرته بأنّ «ليوناردو» قادم ليطلب يدها.. إذ اكتفى بهزّ رأسه والهمس: «مسكين بائس!» ولأنّها لم تكن تقوى على تحمّل أيّ إساءة تمسّ حبّ حياتها فقد اعترضت فورا:

- مسكين بائس! لماذا؟ إنّه من عائلة محترمة، ولديه عمل جيّد، إضافة إلى كونه لا يعاشر النساء، ولا يرتاد الخمّارات.

- أجل، أعلم.. أعلم.. كنت أفكّر في شيء آخر.

الغريب أنّها لم تكن تستطيع استحضار مزيد من الذكريات عن أبيها وكأنّه لم يكن له أيّ وجود فاعل في نشاط المنزل، على خلاف

Twitter: @ketab_n

أمّها، فقد كان باستطاعتها أن تقضي ساعات وساعات في تذكّر أعمال «أوتاسيليا» وحركاتها بشكل مفصّل، بل كانت تستطيع تذكّر أقوالها والجزئيّات الصغيرة التي كانت والدتها تتدخّل فيها. وفي الحقيقة فإنّ «جواكيم» لم يتّخذ أهميّة في حياتهما إلاّ ابتداءً من ذلك اليوم حين تفرّس فيهما بنظره طويلا، بعد أن نعت «ليوناردو» بـ «الحمار الأبله» ثمّ قذف في وجهيهما عبارته العجيبة: «حيّتان قذرتان!» ثمّ تحرّك بأعظم هدوء وجد في هذا الكون، وكأنّه قام بأتفه الأعمال وأكثرها بساطة على الإطلاق، ورحل ولم يعد.

ولكنّ «فندا» لم تكن تريد أن تتذكّر شيئا من تلك الذكريات، فسافرت أبعد، إلى طفولتها البعيدة، حين كان «جواكيم» أكثر وضوحا. وهكذا وجدت نفسها في سنّ الخامسة، بنتًا طويلة الشعر، تجتاحها الحمّى اجتياحًا والدموع تنهمر من عينيها. عندها لم يغادر «جواكيم» الغرفة مُطلقا. بل ظلّ جالسا قرب المريضة الصغيرة ممسكا بيدها طوال الوقت ومن حين إلى آخر يقدّم لها الدواء. كان أبا طيّبا وزوجا وديعا.

بهذه الذكرى الأخيرة وحدها أحسّت «فندا» بالتأثّر الشديد، حتّى أنّها همّت بالبكاء ولكنّ الغرفة كانت خالية للأسف، آه.. لو انتابها هذا الإحساس في الجنازة لكانت قادرة على سفح بعض الدموع أمام النّاس كما يليق بابنة صالحة.

حدّقت في الجثّة مليّا، فبدا لها الوجه كئيبا، والحذاء برّاقا تحت ضوء الشموع، والبذلة نظيفةً لائقة، وبدت يداه مصلوبتين على صدره وكأنّه يتأهّب للصلاة، فيما تسمّرت عيناه في محجريهما. وقَع بصرُها على الوجه الحليق النظيف، فصعقتها الصدمة. ما هذه الابتسامة الوقحة الخبيثة المستهزئة؟ وحدها هذه الابتسامة لم تتغيّر، حتّى

Twitter: @ketab_n

أنّ مهارة عمّال وكالة دفن الموتى لم تستطع إزاءها أيّ شيء. وينبغي الاعتراف بكلّ صراحة بأنّها نسيت هي نفسُها أن تسألهم عمّا إذا كان بالإمكان تسوية هذه الابتسامة الشاذّة بما يتناغم مع قدسيّة الموت..

كلّ شيء تغيّر وعاد إلى أصله «جواكيم سواريس دا كونيا» إلاّ هذه الابتسامة اللعينة فقد ظلّت ابتسامة «كينكاس هدير الماء»، ابتسامة سخرية واستهزاء يقابلها في الطرف الآخر حذاء جديد لامع، بينما «ليوناردو» المسكين مضطرّ إلى ترقيع حذائه ألف مرّة قبل أن يفكّر في حذاء جديد. وما هي فائدة هذه البذلة السّوداء؟ والقميص الأبيض؟ واللّحية الحليقة الناعمة؟ والشعر المصفّف بعناية؟ واليدين المضمومتين للصلاة؟ ما فائدتها جميعا وهذه الابتسامة اللّعينة تعبث بكلّ شيء؟

وفي الواقع فإنّ «كينكاس» كان يضحك من هذا كلّه، وكانت ضحكته تكبر وتنتشر، ولن تلبث خلال وقت قصير أن تُدوّي في هذه الغرفة البائسة! كان يضحك بشفتيه وعينيه مصوّبا نظراته إلى تلك الكومة القذرة من القمامة، تلك الملابس المرقّعة الوسخة المنسيّة في إحدى الزوايا من قبل رجال وكالة الدفن... إنّها ضحكة «كينكاس هدير الماء» المعهودة، وكلّ تفصيل فيها يحمل إهانة صريحة متلاشية في الصّمت الجنائزيّ الّذي فرضه الموت. خُيّل لـ «فندا» أنّها تسمع عبارة «حيّةٌ قذرة!» فخافت وبرقت عيناها كما كان يحصل مع «أوتاسيليا»، حتّى شحب وجهها ومال لونه إلى البياض... إنّها شتيمته المألوفة، ولطالما قذفها في وجهيهما كلّما سعيتا إلى إقناعه بالعودة إلى هدوء المنزل وعاداته القديمة واحتشامه المفقود.

واليوم، حتّى وهو ميّت مسجّى في تابوته بثيابه الفاخرة، والشموع المضيئة فوق قدميه فإنّه يرفض الاستسلام! مسترسلا في الضحك

Twitter: @ketab_n

بفمه وعينيه، ولن يكون مفاجئا لها إذا سمعته يصفّر أو رأته يرفع سبّابته مشيرا إليها بسخرية: «حيّة قذرة»، ثمّ يعود إلى تصفير بعض نغماته السافلة.

ارتعدت «فندا» على كرسيّها، ثمّ فركت عينيها بيديها، وتساءلت في قرارة نفسها إن كانت مجنونة حقّا! أحسّت بأنّها تكاد تختنق في هذه الغرفة المظلمة الحارّة، وبدأ رأسها يدور.. حتّى سمعت فحيح شهيق وزفير على الدرج.. لقد قدمت العمّة «ماروكاس» البدينة وهي تلهث من الجهد، وحين رأت ابنة أخيها شاحبة الوجه، مرتعدة الأوصال، ونظراتها مثبتة على الميّت، هتفت:

- أراك منهارة تماما، يا ابنتي!

ثمّ فكّرت دون أن تنتظر جوابا في الحرّ الشديد داخل هذه الغرفة الحقيرة، فيما اتّسعت ابتسامة «كينكاس» الماجنة، حالما رأى أخته وكأنّه يسخر من بدانتها المفرطة، فوضعت «فندا» إصبعيها في أذنيها، كي لا تسمع ما يمكن أن يتفوّه به من كلمات حقيرة لنعت «ماروكاس» ولكن دون جدوى فسرعان ما تناهت إليها عبارته المألوفة في وصف أخته: « ها هو كيس الضراط الضخم»!

كانت ماروكاس تستعيد أنفاسها شيئا فشيئا، ودون أن تلقي نظرة واحدة على الجثّة، فتحت النافذة على مصراعيها. وسألت:

- هل عطّروه بالطّيب أم لا؟ إنّ رائحته تُدير الرؤوس.

وتسرّبت عَبْرَ النافذة المفتوحة جلبة الشارع بأصواته المتقاطعة المبهمة، وأطفأت نسماتُ البحر ضوء الشموع مُداعبةً وجه «كينكاس» الّذي غمره نور أزرق وضّاء، فبدا مستريحا في تابوته وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة.

Twitter: @ketab_n

VII

في تلك الساعة كان خبر موت «كينكاس هدير الماء» المباغت ينتشر في شوارع مدينة «باهيا» بسرعة غير متوقّعة. صحيح أنّ تجّار السوق لم يغلقوا دكاكينهم تعبيرا عن الحداد. لكنّهم رفعوا على الفور أسعار دمى الأطفال، وحقائب السعف، والمنحوتات الطينية التي كانوا يبيعونها للسيّاح وكأنّهم يؤدّون بذلك ضريبة للرجل الميّت على طريقتهم الخاصّة... وعلى مقربة من السوق تشكّلت تجمّعات صاخبة تشبه الاجتماعات السياسيّة السريعة، والنّاس يتنقّلون من مكان إلى آخر، فيما الخبر يطير في الهواء، يستقلّ مصعد «لاسيردا»، ثمّ يسافر في الترامات إلى «كلسادا»، و يصعد في الحافلة إلى سوق «سنتانا».

حالما بلغها الخبر، انفجرت «باولا»، تلك الزنجية الرشيقة، بالدموع أمام طبقها من حلوى «التابيوكا»[1]. فلن يأتيها «هدير الماء» في ذلك المساء إذن، لن يغمرها مرّة أخرى بكلمات الغزل المنتقاة ببذاءة نادرة، ولن يحاول مجدّدا أن يقرصها من رمّانتي صدرها المُمتلئتين، ويقوم بحركاته المعتادة الماجنة التي تدفعها إلى الضحك.

وفي خليج «إيمانجا»[2] الساحر لم يستطع البحّارة السُّمر الّذين لوّحت الشمس أجسادهم أن يكتموا دهشتهم ولا خيبة أملهم من ميتة «كينكاس» هذه: كيف يمكن لهذا الموت أن يكون داخل غرفة في «طوباو»؟ كيف أمكن لذئب البحار هذا، أن يُسلم الرّوح بهذه الطريقة

---

(1) «التابيوكا»: مستحضر نشويّ لإعداد الحلوى. (المترجم).

(2) «إيمانجا»: هي إلهة الماء المالح حسب المعتقدات الدينيّة الأفرو-برازيليّة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

البائسة على سرير ثابت؟ ألم يجاهر هو نفسه مرارا وتكرارا بصوت ونبرة يكفيان لإقناع أكثر الناس شكّا بأنّه لن يموت على البرّ أبدا؟ وبأنّ القبر الوحيد الّذي يليق بروحه الجامحة ليس سوى البحر المغتسل برذاذ القمر في الزرقة الحيّة المتجدّدة بلا نهاية.

لم يحدث لـ «كينكاس» أن كان ضيفَ شرف في مؤخّرة قارب الصّيد، وأمامه طبق من الأسماك اللّذيذة، ورائحة البخار الشهيّ تتصاعد من قدر الفخّار، فيما قارورة «الكَشاسا» تنتقل من يد إلى أخرى، وصوت القيثار يحرّك ما ركد في أعماق الرّوح... لم يحدث له ذلك إلاّ واستيقظت داخله غرائزه البحريّة كلّها. وحينها كان ينهض مترنّحا تحت تأثير «الكَشاسا» التي تحاكي بمفعولها هذا التمايل الخاصّ بإيقاع المركب على البحر، ويهتف بصفته «بحّارا عتيقا» بأنّه «ذئبٌ عجوز» «ذئبُ بحرٍ» بلا مركب وبلا بحر، وهو مستاء للعيش على هذه الأرض رغم أنفه. فقد خُلق في الحقيقة لأجل البحر، خُلق لكي يرفع الأشرعة، ويتحكّم في دفّة مراكب الصّيد، ويروّض الأمواج في اللّيالي العاصفة. ولقد تحطّم مصيره هو الّذي كان باستطاعته أن يُصبح قبطان سفينة ببذلة زرقاء والغليون في فمه! ولكنّ ذلك لا يمكن أن يجرّده من صفة البحّار الحقيقيّ. فلأجل ذلك ولدته أمّه، «مادلينيا»، حفيدة قبطان إحدى السفن. إنّه من سلالة البحر، وإذا أعطوه ذلك المركب، فسيكون قادرا حتما على الإبحار به، ليس إلى المناطق القريبة مثل «مراغوجيب» أو «كاشويرا» فحسب، بل إلى السواحل الإفريقية البعيدة، رغم أنه لم يقد مركبا واحدا في حياته. كان ذلك في دمه ولم يكن عليه أن يتعلّم شيئا في موضوع الملاحة، فقد وُلد وهو يعرف كلّ شيء. وإذا كان هناك شخص واحد في هذه الرفقة الرائعة يتجاسر على الشكّ، فليعلن عن نفسه!.. كان يقول ذلك وهو يفرغ قارورة «الكَشاسا» جرعة بعد أخرى. بيد أنّ الرجال لا يشكّون في أقواله أبدا.

Twitter: @ketab_n

فما يقوله «كينكاس» أكيد وصحيح. كلّ من وُلد في البحر يعرف خباياه جيّدا، وليس في حاجة إلى أيّ شخص يكشف له عن أسراره.

لذلك تحديدا أطلق «كينكاس هدير الماء» قَسَمهُ الرسميَّ الشهير، لقد خصّ البحر وحده بشرف ساعته الأخيرة، ولحظاته النهائية. ولن يقبل أبدا بأن يُدفن في ثقب أرضيّ من ستّة أشبار. كلاّ! لن يحدث ذلك مُطلقا! وعندما تحين ساعتُه، سيشترط حريّة البحار.. حريّة الرحيل الّذي لم يستطع تحقيقه أثناء حياته، ويغيب في الزرقة التي لا نهاية لها، مُتجّشما المخاطر والمغامرات الأكثر جسارة.

كان الكابتن «مانويل» الكهل الهادئ، أشجع سادة المراكب على الإطلاق يصغي إلى «كينكاس» ويهزّ رأسه موافقا. وكان الآخرون، الذين علمتهم الحياة ألاّ يشكّوا في أي شيء، يجارونه في موافقته وهم يحتسون جرعات جديدة من «الكَشاسا»، ويترنّمون بألحان القيثار وهي تروي حكاية اللّيالي البحريّة الساحرة، وإغواء «جانيتا»[1] القاتل، بينما كان صوت «ذئب البحار العجوز» أعلى من الجميع.

كيف مات، إذن، فجأة في غرفة بائسة عند «منحدر طوباو»؟ كان حدَثًا لا يُصدّق! لذلك حين بلغ الخبر أصحاب المراكب لم يأخذوه على محمل الجدّ، فكثيرا ما كان «هدير الماء» ينصب لهم شراك مكائده الخفيّة ويوقعهم فيها، وليست هذه هي المزحة الأولى التي يخدعهم بها جميعا.

ومن جهتهم حطّم المقامرون ألعابهم الحماسيّة، بدءا من «الزهر» وصولا إلى «السبعة ونصف» غير مبالين بالربح والخسارة. ألم يكن «هدير الماء» زعيمهم بلا منازع؟

وفي المساء كان الظلام يهبط رويدا رويدا والحداد يلفّ بهيبته

(1) «جانيتا»: هو اسم لإحدى عرائس البحر التي كانت تستدرج الصيّادين بمفاتنها وتأخذهم بعد ذلك بعيدا إلى قصورها في أعماق البحار، فلا يعودون أبدا . (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كلّ شيء، فسيطرالحزن العميق على الحانات والخمّارات والدكاكين والمستودعات. وعلى كلّ مكان تُشرب فيه «الكَشاسا». فلم يتناول أحد مشروبا إلاّ للتخفيف من حدّة هذا الألم جرّاء الخسارة التي لا يمكن تعويضها، خسارة الرجل الّذي كان أمير السكّيرين، فلا أحد كان يجرؤ على مجاراته في ذلك، ومهما كانت كميّة الكحول التي يلقي بها في جوفه، فإنّه لم يفقد توازنه أو صفاء ذهنه أبدا، بل على العكس كان يزداد رصانة وتألّقا ويغدو متوقّد الذكاء. ولا أحد أيضًا كان يضاهيه خبرةً في أصناف الخمور ومصادرها، ولا معرفةً بالفُوَيْرِقَاتِ الطفيفة بين هذه الأصناف في اللّون أو الطعم أو الرائحة.. وليس ذلك بالعجيب فالرّجل لم يذق طعم الماء منذ زمان طويل، وتحديدًا منذ ذلك اليوم الشهير الّذي وُلدت فيه كُنية «هدير الماء».

طبعا، لم يكن ما حدث في ذلك اليوم البعيد قصّة خالدة أو حكاية مثيرة تستوجب أن نرويها لكم. ولكنّنا نقصّها عليكم هنا لأنّها الحادثة التي التصقت فيها كُنية «هدير الماء» باسم «كينكاس» نهائيّا حتّى غدا لا يُنطق إلاّ بها. وقد بدأت القصّة حين دخل «كينكاس» في ذلك اليوم، حانةً صغيرة في طرف السوق يديرها إسبانيّ طيّب يُدعى «لوبيز»، وبما أنّه زبون عريق فقد كان له الحقّ في أخذ ما يريد دون مساعدة النادل. تفرّس في المشروبات فرأى على الطاولة زجاجة صافية شفّافة وكأنّها «كَشاسا». صبّ لنفسه كأسا، وبصق لكي ينظّف فمه ويُهيّئ لها مكانا لائقا، ثمّ احتساها دفعة واحدة... وفجأة دوّت صرخة غير بشريّة، عكّرت فورا صفاء ذلك الصباح الهادئ في جميع أنحاء السوق، وهزّت البار من أسسه العميقة، ثمّ تحوّلت إلى ما يشبه عواء حيوان جريح يحتضر، أو أنين رجل وقع طعنه غيلةً:

- ماءءءءء!

Twitter: @ketab_n

«يا له من إسبانيّ قذر بائس!»، كان الناس يقولون، راكضين في كلّ ناحية. «لا شكّ أنّ أحدهم يُقتل في الحانة الآن!». بينما راح الزبائن يقهقهون ضاحكين، لأنّهم عرفوا أنّ مصدر الصوت هو «كينكاس» الّذي لدغته الكحول المحضة الصافية، فاستغاث لإطفاء لهيبها الضاري.

وما لبثت نادرة «هدير الماء» أن انتشرت في سوق «بولورينيو» ومن «لارغو دو سات بورتس» إلى «ديك»، ومن «كلسادا» إلى «إيتابوا». والتصقت باسمه الشهير منذ ذلك كُنية «هدير الماء»، وبدءا من تلك اللّحظة التاريخيّة إلى الآن وهو يُدعى «كينكاس هدير الماء»، حتّى أنّ «كيتاريا جاحظة العينين» كانت تهمس في فمه في اللحظات الحميمة الخالصة: «هدير الماء» وصوتها يترقرق من بين أسنانها العاضّة.

لقد انتشر خبر موته في كلّ مكان، وبلغ البيوت الفقيرة التي تسكنها المومسات الرخيصات، ويرتادها المتشرّدون والمتحيّلون والمهرّبون الصغار، وفيها يجد البحّارة ملاذا دافئا وعائلة أليفة ويختلسون بعض الساعات الهاربة من الحبّ. في ذلك الوقت الضّائع من اللّيل، بعد أن أغلق سوق الجنس الحزين أبوابه، وذهبت النساء المتعبات للبحث عن قليل من المواساة، وصل خبر موت «كينكاس هدير الماء» فعمّت الكآبة المكان وانهمرت أكثر دموع الحزن لوعةً. كانت النساء يبكين وكأنّهنّ فقدن قريبا، وأحسسن، فجأة، بأن لا حول لهنّ و لا قوّة في بؤسهن. بعضهنّ أحصين أموالهنّ و قرّرن أن يشترين للميّت أجمل أزهار «باهيا». فيما كانت «كيتاريا جاحظة العينين» ممزّقةَ القلب، مُحاطة بأشدّ دموع التعاطف من رفيقات البيت، وكانت أصوات عويلها تتتبّع درجات شارع «ساو ميغيل». وتتخطّاه بعد ذلك لتنطفئ في ساحة «بولورينيو». لا شيء كان بإمكانه أن يخفّف عنها غير

Twitter: @ketab_n

انغماسها في الكحول، وهي تستحضر بين الجرعات والنحيب ذكرى ذلك العشيق التي لا تنسى، العشيق الأكثر حنانا وجنونا في الكون، صانع البهجة حيثما حلّ والعارف بكلّ شيء. وسرعان ما بدأت هذه الخصال تتعدّد بتوافد الزائرين، فتذكّرت النسوة عنايته الشديدة بابن «بينيديتا» البالغ من العمر ثلاثة أشهر فقط عندما اضطرّت إلى دخول المستشفى والبقاء هناك طوال شهر كامل، كان الطفل خلاله في عهدة «كينكاس» الّذي اهتمّ به وكأنّه أمّه، فكان يقدّم له الحليب، ويغيّر حفّاظاته، ثمّ ينظّف مؤخّرته، ويغسّله بعد ذلك. شيء واحد لم يكن بوسعه أن يفعله من أجل الطّفل، وهو أن يرضعه من صدره!

ثمّ، ألم ينطلق بكلّ جسارة الأبطال منذ أيام فقط، وهو العجوز السكران، لإغاثة «كلارا» الخادمة، حين أراد ابنا قحبة من إحدى العائلات الميسورة أن يحوّلا وجهتها عنوةً في حانة «فيفيانا»؟... آه، وكم كان نديما ظريفا على المائدة الكبيرة ساعة الغداء!... من كان يستطيع أن يروي قصصا أكثر تسلية منه، أو أن يعزّي بصورة أفضل منه هموم الحبّ، وكأنّه أب حقيقيّ أو شقيق أكبر؟

وقبل أن يحلّ المساء ثانيةً تدحرجت «كيتاريا جاحظة العينين» من على كرسيّها، فتمّ نقلها إلى سريرها لتنام مع ذكرياتها، فيما قرّرت النسوة ملازمة منازلهنّ، وإغلاق أجسادهنّ في وجوه الرجال تلك الليلة، حدادا على الفقيد، تماما كما كُنّ يفعلن ليلة الخميس المقدّس أو الجمعة المباركة!!

Twitter: @ketab_n

VIII

في آخر الغروب، عندما أضيئت أنوار المدينة وشرع الناس يغادرون أعمالهم، كان الأصدقاء الأربعة الأكثر قربا من «كينكاس» وهم «الطائر الجميل» و«الزنجيّ المدهون الشعر» و«مارتان العريف» و«رشيق الحركة» ينزلون منحدر «طوباو» في اتجاه غرفة الميت. وهنا لا بد من الإقرار إحقاقا للحقّ بأنّهم لم يكونوا سكارى على الإطلاق. صحيح أنّهم شربوا بعض الجرعات عند سماع الخبر. ولكنّ الحمرة التي في عيونهم كانت جرّاء غزارة الدموع التي ذرفوها تحت وطأة الألم المريع، وهذا فقط ما تفسّره أصواتهم المتقطّعة وخطواتهم المترنّحة. إذ كيف يمكن الحفاظ على كامل الرصانة عندما يموت صديق السنوات الطويلة، وأعظم متشرد في «باهيا»؟ أمّا بالنسبة إلى القارورة التي أخفاها «العريف» تحت القميص فلا أحد بإمكانه تقديم برهان على وجودها.

في هذه اللّحظات المتأرجحة بين العتمة والنور بدأت ملامح التعب تغزو وجه الميّت. فاعتبرت «فندا» الأمر طبيعيّا، ولم تتفاجأ، فقد قضّى العشيّة كلّها ضاحكًا مُتمتما بأقذر الكلمات، هازئًا منها... وحتّى عندما وصل «ليوناردو» والعمّ «إدواردو»، حوالي الخامسة بعد الظهر، فإنّه لم يتنازل عن وقاحته تلك، ويركن إلى الراحة ولو قليلا، بل همس في وجه «ليوناردو»: «يا له من غبيّ». ثمّ حوّل مدافع سخريته صوب «إدواردو». ولكن، عندما خيّمت ظلال الشفق على المدينة، لاذ «كينكاس» بالسكون التامّ. كما لو أنّه كان ينتظر شيئا وتأخّر كثيرا. وكانت «فندا» تحاول أن تمحو كلّ ما حدث داخل الغرفة من ذاكرتها، وتجاهد كي تقنع

Twitter: @ketab_n

نفسها بأنّ ما رأته وسمعته ليس سوى تهيّؤات، فانخرطت في حديث ساخن مع زوجها وعمّها وعمّتها، مجتنبة التحديق في وجه الميّت مرّة أخرى.. فكلّ ما كانت تريده، هو مغادرة هذا المكان إلى منزلها لتتناول قرصا منوّما يساعدها على بعض الراحة، لا سيّما حين عادت إليها الكوابيس مجدّدا، فرأت عينيّ «كينكاس» مرّةً تنظران إلى النافذة ومرّة إلى الباب؟

لم يصل الخبر إلى الأصدقاء الأربعة في الوقت نفسه. فبلغ أوّل من بلغ «الطائر الجميل»، هذا الرجل الّذي دفن مواهبه المتعدّدة في وظيفة تافهة، إذ كان عليه أن يلازم كلّ يوم باب محلّ تجاريّ في «بايشا دو سباتيرو»، بمعطفه الأسود القذر، وسحنته المتلوّنة مثل مهرّج ، وأن يمتدح مقابل مكافأة هزيلة بضائع المحلّ الرّائعة وأسعارها البخسة مقتنصا الزبائن بأقواله الطريفة، دون أن يتردّد في جرّ بعضهم عنوةً إلى داخل المحلّ، حتّى إذا استولى عليه العطش جرّاء هذه المهنة اللعينة التي تجفّف البلعوم والصدر معا، قفز إلى أقرب خمّارة وشرب قدحا صغيرا يوقظ الرّوح ويعيد الصوت إلى رشده. وأثناء إحدى هذه الروحات والرجعات بلغه النبأ. كان وحشيًا مثل لكمة ثقيلة في وسط الصدر، فتخلخلت الروح وضاع الصوت تماما. وبصعوبة بالغة قفل راجعا إلى المحلّ مكدود القلب مثقلا بالعذاب، وأعلم البائع السوريّ بأن لا يُعوّل عليه في ما تبقّى من ذلك النهار.

كان «الطائر الجميل» شابّا في مقتبل العمر تكفيه فرحة واحدة كي يحلّق في السماء، ويكفي حدث واحد مؤلم لكي يسقط من عليائه مكسور الجناح، فما بالك بصاعقةٍ من هذا النوع! لذلك لم يستطع احتمال الصدمة منفردا، وانتابه الإحساس بالحاجة الملحّة إلى فريقه المعهود المتشكّل من الأصدقاء الطيّبين القدامى، وسارع بالانضمام إليه.

Twitter: @ketab_n

في الحلقة، حول قوارب الصّيد.. في سوق السّبت الليليّ في «أغوا دوس مينينوس».. في «سات بورتاس».. وفي عروض «الكابويرا»[1] على «طريق الحرية».. كانت الأمكنة كلّها تغصّ بالسامرين، بحّارة.. باعة.. ملاكمين.. رجال «بابابولاي»[2] لاعبي «كابويرا»، ومتحيّلين، غرقوا جميعا في أحاديث لا تنتهي عن «كينكاس» بعد انتشار خبر وفاته. فاختلطت الحكايات بعربدات السكارى وحيل المقامرين وأصوات الصيّادين تحت ضوء القمر.

كان لـ«كينكاس» كثير من المعجبين والأصدقاء، ولكن هؤلاء الأربعة لم يفارقوه يوما، فقد ظلّوا يلتقون به سنوات وسنوات. يجتمعون معا كلّ ليلة، لا يهمّهم إن كانوا مفلسين أو على ميسرة من أمرهم، يتضوّرون جوعا أو أرهقتهم التخمة. كانوا يتناوبون على دفع ثمن الشراب، متكاتفين مثل عصابة واحدة في السرّاء والضرّاء. ولكن، الآن فقط، تفطّن «الطائر الجميل» إلى درجة هذا الترابط بينهم. فقد بدا له موت «كينكاس» بترًا لعضو من أعضاء الجسم الواحد، تماما كما لو بُترت له قدَمٌ أو استُؤصلت ذراع، أو كأنّ عينا فُقئت من جسده، ولعلّها العين الأهمّ، عين القلب التي ما فتئت تتحدث عنها الكاهنة «سينهورا» سيدة الحكمة الكاملة في ديانة «الكندمبلاي». لذا توجّب عليهم أن يلتقوا جميعا، وأن يذهبوا لإلقاء نظرة الوداع على هذا الجزء المبتور من الجسد.

وبعد أن حسم أمره على هذا الرأي، خرج باحثا عن «المدهون»، وهو يقول في قرارة ذاته: "لا بدّ أن يكون في تلك الساعة في «لارغو داس سات بورتاس» يساعد الساعي الشهير لليانصيب السريّ لكي يجمع من

(1) «الكابويرا»: رقصة بهلوانيّة تقوم على محاكاة مشهد قتال يؤدّيه رجلان دون أن يلمس أحدهما الآخر. (المترجم).

(2) «رجال البابابولاي»: العرّافون، أو السحَرة في بعض الطقوس الأفرو- برازيليّة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الملاليم ما يدفع به ثَمَن «كَشاسا» اللّيل". كان طول «المدهون» حوالي المترين، وحين ينفخ صدره يبدو ضخما وقويّا كالبناية الشاهقة. لذلك لم يكن باستطاعة أحد أن يقاومه عندما يكون غاضبا، ولحسن الحظّ لا تنتابه هذه الحالة إلاّ نادرا، لأنّ «المدهون» مرح بطبعه وطيّب القلب.

ومثلما توقّع، فقد عثر عليه في ساحة «سات بورتس». كان منزويا هناك في ركن من أركان السوق الصغير غارقا في دموعه، وبيده زجاجة شبه فارغة. وقد تحلّقت حوله جوقة من شتّى أصناف المتشرّدين، يشاركونه الشرب ويردّدون تنهّداته ونواحه. لقد كان على علم بالنبإ! فكّر «الطائر» في قرارة نفسه وهو يرى المشهد.

شرب «المدهون» جرعة، ومسح بكمّه دموعه المنهمرة على خدّيه، وصرخ في يأس:

- لقد مات، أبونا الرّوحيّ!

-.........، أبونا الرّوحي!

ردّدت الجوقة بحسرة، بينما كانت زجاجة التعزية تنتقل من يد إلى أخرى، والدموع تتدفّق من عيني الزنجيّ، ويغدو عذابه في زحمة الأصداء المتردّدة أشدّ إيلاما.

- لقد مات.. رجل الخير!

-.......... رجل الخير!

وبين حين وآخر، كانت شخصيّة جديدة تندمج في الجوقة دون أن تعرف سبب هذه المناحة أحيانا، فيناولها «المدهون» الزجاجة ويطلق صرخة رجُل طُعن بخنجر:

- لقد كان طيّبا..

-........ كان طيّبا!

هكذا كان يردّد الآخرون، باستثناء الوافد الجديد الّذي ينتظر

Twitter: @ketab_n

مذهولا أن يُفسّر له أحدهم سبب هذا النحيب المُريع، وسرّ توزيع «الكَشاسا» مجّانا على الجميع.

- تكلّمّ أنت أيضا أيها اللئيم...

ودون أن ينهض من مكانه، يمدّ «المدهون» ذراعه القويّة ويخضّ الوافد الجديد على الحلقة وعيناه تقدحان شررا، ثمّ يكمل قائلا:

- لعلّك تريد الإقرار بأنّه لم يكن رجلا طيّبا؟

حينها يتقدّم أحد الحضور بسرعة، تجنّبا لتعقيد الموقف، ويشرح الأمر:

-إنّه «كينكاس هدير الماء» الذي مات.

- كينكاس؟... حقّا؟.. لقد كان رجلا لطيفا...

هكذا كان يقول الوافد الغريب، ثمّ يردّد مع الجوقة.. وقد ألمّ به الذعر أكثر من الاقتناع.

- زجاجة أخرى!

يطالب بذلك «المدهون» وهو ينتحب.

فيقفز صبيّ رشيق إلى الشارع، ويركض مسرعا إلى الخمّارة المجاورة:

- «المدهون» يريد زجاجة أخرى.

كان خبر موت «كينكاس» يرفع من استهلاك «الكشاسا»، في كل مكان يصل إليه. وكان «الطائر الجميل» يراقب المشهد من بعيد متعجّبا من وصول الخبر بسرعة أكبر منه. فانتبه إليه الزنجيّ وعلى الفور نهض واقفا وهو يرفع ذراعيه إلى السماء، وعوى متمايلا:

- أيّها «الطائر الجميل»، يا أخي العزيز، لقد مات أبونا الرُّوحيّ.

- ....أبونا الرُّوحيّ.

رددت الجوقة

Twitter: @ketab_n

-أغلقوا أفواهكم القذرة، لعنة الله عليكم، ودعوني أعانق أخي «الطائر الجميل».

تم تنفيذ عادات التربية الحسنة التي يتحلّى بها أهل مدينة «باهيا»، من الأشد فقرا إلى الأكثر تحضّرا. فسكتت الأفواه. ورفرف طرف معطف «الطائر الجميل» في الريح بينما انهمرت الدموع غزيرة من عينيه، واتّخذت لنفسها مسلكا على خدّه المبقّع بالألوان. تعانق الرجلان ثلاث مرّات والتحم نحيبُهما. ثمّ قبض «الطائر الجميل» على زجاجة التعزية عساها تخفّف من عذابه، ولكن دون جدوى.

- لقد انطفأ نور الليل...

- .... نور الليل....

فقال «الطائر الجميل» لصديقه:

- لنذهب في طلب بقيّة الرفاق، وبعد ذلك نلقي عليه نظرة الوداع.

لم يكن «مارتان العريف» ثالث عناصر «الشلّة» ليوجد إلاّ في ثلاثة أماكن دون سواها. فهو إمّا نائم في بيت «كاريلا» بعد ليلة حبّ عاصفة. وإمّا في مدخل السوق يثرثر مع بعض الأصدقاء. أو يقامر بالورق في سوق «أغوا دوس مينينوس». فمنذ أن ترك «العريف» الجيش قبل خَمْسَ عَشْرَة سنةً خلَت لم يكرّس حياته لغير هذه المهمّات الثلاث: الحبّ والثرثرة والقمار. ولم يَقُم أبدا بعمل آخر معروف، فالنساء والحمقى يمنحونه ما يكفي من المال لكي يعيش. أمّا العمل بعد خلع البذلة العسكرية المجيدة فهو في نظره المذلّة بعينها، لا سيّما بالنسبة إلى خلاسيّ مثله، فوَسامتُه ونبوغُه في علم القمار بأصابعه الخفيفة تكفّلا وحدهما بجعله شخصيّة محترمة، دون الحديث عن مهارته الفائقة في العزف على القيثار.

في تلك الليلة، كان «العريف» في سوق «أغوا دوس مينينوس»، يتفنّن

Twitter: @ketab_n

في ممارسة مواهبه في لعب الورق، مثيرا موجة من المرح بين الجمهور المتحلّق حول اللّعبة، وكان أغلبه من سائقي الحافلات الصغيرة والشاحنات، إضافة إلى مُراهقيْن مُتربّصيْن يشرف على تكوينهما وهما يخطوان الخطوات الأولى على طريق الحياة الصعب، وبعض الباعة الّذين كان يساعدهم على صرف نسبة من أرباح مبيعاتهم اليومية. وهكذا، إذن، كان يقوم بأنبل المهامّ. بل إنّ مهارته الفائقة بلغت حدّا من التفنّن تضيق الأذهان عن استيعابه في بعض الأحيان، وإلاّ فكيف يمكن أن نفسّر سلوك أحد الباعة حين لم يشارك الجميع حماسهم وغمغم من بين أسنانه قائلا: «إنّما التوفيق الدائم علامة على الغش». عندها رفع «العريف» عينيه الزرقاوين بكلّ براءة وقدّم حزمةَ الأوراق إلى حضرة الناقد المعترض، مقترحا عليه أن يتولّى هو المهمّة، إذا أراد، ولا بأس إن أظهر البراعة اللازمة، أو إذا حالفه الحظّ.. ودون أن ينتظر منه جوابا عاجله بضربة فهوى كالكيس على الأرض. لم يكن «العريف» يقبل مطلقا أيّ تلميح من التلميحات الماكرة الّتي تخصّ نزاهته، وهو بصفته عسكريّا سابقا شديد الحساسيّة إزاء أقلّ إشارة تشكيك في شرفه، ومن شدّة حساسيّته هذه نزع حزامه الجلديّ استعدادا لردع أيّ هجوم حين تحتدم المعركة. وسرعان ما بلغت حماسة المراهقين ذروتها، وراح السائقون يفركون أكفّهم محرّضين، فلا شيء أجمل من صراع جيّد، ولا سيّما حين يكون مجّانيّا وغير مُدرج ضمن برنامج السهرة.

في تلك اللحظة بالذّات.. اللّحظة المفتوحة على كلّ الاحتمالات ولا يعمّها غير السكون الّذي يسبق العاصفة، ظهر «الطائر الجميل» و«المدهون» حاملين معهما الخبر المأسويّ و زجاجة «كَشاسا» تحتضر. ومن مكان بعيد صاحا بـ «العريف»:

Twitter: @ketab_n

- لقد مات! لقد مات!

حدّق إليهما «العريف» بعينيه الثاقبتين، ثمّ تفرّس مليّا في الزجاجة المحتضرة، وراح يُدير في رأسه معادلة دقيقة: «إذا كان قد شربا زجاجة كاملة، فلا بدّ أن يكون الأمر على درجة عالية من الأهميّة، وهناك احتمالان لا ثالث لهما، فإمّا أن يكون «المدهون» قد ربح في اليانصيب أو أنّ «الطائر الجميل» قد وقع في الحبّ ».

وفي الواقع لطالما حدث ذلك، فـ «الطائر الجميل» رومنطيقيّ غير قابل للشفاء، تحرّكه عواطفه وتعبث به حتّى تخاله مجنونا حقّا، لا سيّما حين تنتابه نوبات العشق والهيام المتواترة، ففي كلّ مرّة تبدأ علاقته بحبّ جارف يجعله يحلّق فوق الغيوم، وبعد وقت قصير تنتهي، وينتهي معها محطّمَ القلب، فيلسوفًا بائسًا يُثير الحزن والشفقة.

- هناك شخص مّا قد مات .

قال أحد السائقين.

فمدّ «العريف» أذنه وأرهف السّمع:

- لقد مات! لقد مات!

واقترب الرجلان وقد أثقل كاهلما الحزن ووطأة الخبر المشؤوم بعد أن ظلاّ يحملانه ويطوفان به من «سيتي بورتس» إلى «مينينوس» مرورا بحوض القوارب، وبيت «كاراميلا». كان ينقلان النبأ إلى عدد كبير من الناس، باثّين اللّوعة والحزن في كلّ مكان مرّا به، حتّى أنّ كلّ شخص يخلّفانه في الطريق يسارع فورا إلى فتح أوّل زجاجة تصادفه من الكحول. وليس ذنبهما، هما الغارقيْن في الحزن والحداد، أن يعترضهما هذا العدد الكبير من النّاس، أو أن يكون لـ«كينكاس» هذا الحشد من المعارف والأصدقاء. وليس ذنبهما أن تعمّ أصوات فتح القوارير في مدينة «باهيا» كلّها -أو ذلك ما خُيّل إليهما- على خلاف

Twitter: @ketab_n

المُعتاد. فليس كلّ يوم يموت «كينكاس هدير الماء».

ظلّ «العريف» يتفرّس في القادمين بفضول ما انفكّ يزداد كلّما اقتربا، بينما كان ذهنه يمحو من حوله كلّ شيء: حلقة المقامرين، والشجار الذي كاد يبدؤه، والأوراق التي بقيت عالقة بيده... إنّهما يبكيان، لم يعد عنده شك في ذلك. ثمّ وصله صوت «المدهون» مختنقا:

- لقد مـ..ات أبـ..ونا...

- يسوع المسيح أم محافظ المدينة؟

سأل أحد الصبية بأسلوب ساخر، ولكنّ يد «العريف» رفعته في الهواء ثم ألقته أرضا. وعندها فهم الجميع أنّ المسألة جديّة.

ورفع «الطائر الجميل» الزجاجة قائلا :

- لقد مات «هدير الماء» !

أفلتت أوراق اللعب من يد «العريف» وتناثرت على الأرض. فتأكّد خصمه الحذر من صحّة ظنونه عندما رأى ضمنها حشدا من «الأصّات» و«السيّدات». ولكنّ أذنه التقطت اسم «هدير الماء»، فآثر السلام والصّمت إكراما لذكرى الفقيد. أمّا «العريف» فقد قبض على زجاجة «الطائر الجميل» وأفرغ ما بقي منها في جوفه دفعة واحدة، ثمّ رماها بعيدا. وراح يحدّق طويلا إلى السوق، وإلى سائقي الشاحنات والحافلات الصغيرة على الطريق، إلى الزوارق في البحر، وإلى الغادين والرائحين من الناس. انتابه فجأة الإحساس بالفراغ الكليّ، فلم يعد يسمع شيئا بما في ذلك زقزقة العصافير في أقفاص بائع قريب.

لم يكن «العريف» من الرجال الّذين يهدرون الدموع، فالعسكريّ لا يبكي أبدا، حتّى و إن خلع بزّته المجيدة، ولكنّ عينيه ضاقتا وظلّتا جامدتين، بينما فقد صوته كلّ نبرة تبجّح وغدا كصوت الطّفل الصغير وهو يسأل:

Twitter: @ketab_n

- كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

ثمّ انضمّ إلى صديقيه بعد أن أعاد أوراق اللّعب إلى علبتها الكرتونيّة ووضعها في جيبه. لم يبق لهم الآن سوى العثور على «رشيق الحركة» ولم يكن له مكان معلوم ثابت يمكن ملاقاته فيه طوال الأسبوع إلاّ مساء الخميس أو الأحد في «فالديمار» على «طريق الحريّة» حيث كان يشترك بصورة دائمة في مبارزات «الكابويرا». وفي ما تبقّى من أيّام الأسبوع، كان يصطاد الفئران والضفادع ويبيعها للمختبرات لاستخدامها في البحوث الطبيّة والتجارب العلمية. وقد حظي بفضل هذا النشاط بإعجاب أصدقائه، وكان رأيه من أكثر الآراء جدارة بالاحترام. ألم يكن هو أيضا عالِما إلى حدّ ما؟ ألا يتحدث دائما مع الدكاترة؟ ألم يكن يعرف مثلهم كثيرا من الكلمات الصعبة؟

وبعد أن ساروا طويلا وشربوا في طريقهم جرعات كثيرة، تمكّنوا أخيرا من العثور عليه ملفوفا في سترته الواسعة كما لو أنه يئنّ من البرد، منكفئا على نفسه يدمدم وحيدا. لقد بلغه الخبر بطريقة مّا، هو الآخر، وقد كان بدوره يبحث عن أصدقائه وعندما رآهم دسّ يده في أحد جيوبه، «ربّما للبحث عن منديل يمسح به دموعه» هكذا خمّن «الطائر الجميل». ولكنّ «رشيق الحركة» سحب من أعماق جيبه ضفدعة صغيرة خضراء برّاقة كالزمرّد.

- لقد احتفظت بها لـ«كينكاس»، فلم يسبق أن عثرت يوما على ضفدعة واحدة أكثر منها جمالا.

Twitter: @ketab_n

IX

عندما بلغ الأصدقاء الأربعة باب الغرفة، مدّ «رشيق الحركة» يده وعلى راحتها كانت الضفدعة ترتاح ساكنة بعينيها الصغيرتين الجاحظتين. ظلّوا واقفين عند الباب واحدًا إثر آخر. وكان «المدهون» آخرَهُم، فمدّ رقبته إلى الأمام لكي يرى جيّدا، في حين ارتبك «رشيق الحركة» من الخجل فأخفى الحيوان في جيبه.

قطع أفراد العائلة حديثهم الحميم، وحدّقوا جميعا إلى الباب: أربعة أزواج من العيون.. جاءت لتقديم العزاء.. «هذا ما كان ينقصنا» قالت «فندا» مغمغمة... بينما تقدّم «العريف» الّذي لم يكن يفوقه أحد في آداب المعاملة سوى «كينكاس»، ثمّ نزع قبّعته عن رأسه القذر، وحيّا الأشخاص الحاضرين:

- مساء الخير، سيّداتي سادتي، لقد جئنا لنلقي عليه نظرة الوداع..

وبكلّ رشاقة خَطا خطوة إلى الأمام، فلحق به الآخرون، بينما ابتعد أفراد العائلة، وأحاط القادمون الجدد بالتابوت.

في البداية شعر «الطائر الجميل» بأنّ في الأمر خدعةً، فلا يمكن أن يكون هذا الميّت «كينكاس هدير الماء»! ولكنّه تعرّف إليه بصعوبة بعد ذلك من خلال ابتسامته الساخرة.. وأُصيب الأصدقاء الأربعة بالذهول.. إذ لم يتوقّعوا أبدا أن يروا «كينكاس» نظيفا وأنيقا في مظهره وثيابه كما يرونه الآن. وتبخّرت نشوة السكر من رؤوسهم، وكأنّها بفعل ساحر. فوجود العائلة، ولاسيّما النساء، جعلهم مرتبكين خجولين، لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا أين يضعون أيديهم أو كيف

Twitter: @ketab_n

يتصرّفون في حضرة الميت، حتّى أنّ «الطائر الجميل» بدا مضحكا بوجهه المبقّع بالأحمر، ومعطفه الواسع المهترئ، وهو ينظر إلى رفاقه متوسّلا الخروج من هذه الغرفة في أسرع وقت ممكن... بينما كان «العريف» متردّدا مثل جنرال يدقّق في قوى العدوّ عشيّة المعركة. ووصل الأمر بـ «رشيق الحركة» إلى القفز خطوة نحو الباب. ولم يحافظ على رباطة الجأش غير «المدهون» الذي مال بعنقه الطويل صوب الميّت، ولم تخامره لحظة شكّ واحدة في أنّ المرحوم يبتسم له، فابتسم له الزنجيّ بدوره، وظلّ قريبا منه، فما من قوّة بشريّة باستطاعتها أن تنتزعه من هناك، من قرب وسادة أبيه الروحيّ «كينكاس». ثمّ أمسك «رشيق الحركة» من ذراعه، وحدج «الطائر الجميل» بنظرة مشوبة بالاحتقار، ففهم «العريف» الإجابة فورا: «أجل.. لا ينبغي للجنديّ أن يفرّ من ساحة المعركة»، وابتعد الأربعة عن التابوت وهم يبحثون عن موضع داخل الغرفة.

ساد الجوّ صمت ثقيل قسّم الغرفة والحاضرين معا، ففي جانب كانت هناك عائلة «جواكيم سواريس دا كونيا»؛ الابنة والصهر والإخوة. وفي الجانب الآخر كان أصدقاء «كينكاس هدير الماء». في حين بقي الماثل في التابوت واحدًا، يطلّ بابتسامته الساخرة على أصدقائه هو «كينكاس»، ويُشعّ بنظافته وأناقة ثيابه على أفراد عائلته هو «جواكيم».

دسّ «رشيق الحركة» يده في جيبه وجسّ الضفدعة التي كان يريد أن يُهديها إلى «كينكاس» فبدت له ترتعد من الخوف.

وتقدّم أفراد العائلة من التابوت، بينما واصل الأصدقاء تراجعهم إلى الوراء، وكأنّ الجميع في رقصة «باليه» متوازنة الحركات... وأطلقت «فندا» صوب أبيها نظرة تأنيب واحتقار: «حتّى في مماته

Twitter: @ketab_n

ما زال يميل إلى هذه «الشلّة»... يبدو أنّه كان ينتظرهم دون غيرهم. ولم يكن صمته الغريب في عصر هذا اليوم إلاّ بسبب انزعاجه من تأخّرهم. لقد ظنّت نفسها انتصرت عليه أخيرا وأرغمته على إقفال فمه القذر بفضل مقاومتها الصّامتة وكبريائها الكبير، لكنّ ابتسامته الساخرة سرعان ما طفت على وجهه من جديد، وطفت معها كلماته البذيئة وغدا واضحا أنّ الجثّة التي أمامها هي جثّة «كينكاس هدير الماء». ولولا ذكرى أمّها «أوتاسيليا» المُهانة، لتخلّت عن هذه المعركة منذ البداية، وتركت هذه الجثّة الحقيرة في هذا الحيّ الحقير.. لولاها لَأعادت التابوت إلى وكالة الدفن، وباعت الملابس الفاخرة بنصف ثمنها إلى أوّل بائع متجوّل يصادفها على الطريق».

صار الصّمت غير محتمل، فالتفت «ليوناردو» إلى زوجته وعمّته معا:

- أعتقد أنّ الوقت قد حان لتذهبا الآن. فبعد قليل سيحلّ اللّيل.

قبل دقائق، كانت «فندا» لا تفكّر إلاّ في العودة إلى البيت لترتاح... لكنّها لم تكن من النساء اللّواتي يقبلن بالإذعان لأوامر الآخرين بيُسر، لذلك فقد أجابت وهي تصرّ على أسنانها:

- بعد قليل.

جلس «المدهون» على الأرض مُسندا رأسه إلى الجدار، فركله «رشيق الحركة» بقدمه، إذ ليس من اللاّئق اتّخاذ مثل هذا الوضع أمام عائلة الميّت، في حين ظلّ «الطائر الجميل» يعلن باستمرار عن رغبته في الذّهاب، لكنّه سرعان ما لاذ بالصّمت مرّة أخرى تحت سطوة نظرة «العريف» القاتلة. أمّا «المدهون» فلم يُعر الحاضرين أيّ اهتمام، بل دفع بيَدِه قدَمَ صديقه المزعجة، وانخرط مباشرة في النحيب:

- مسكين «كينكاس»! لقد كان أبانا الرّوحي...

كانت هذه الجملة لكمةً قويّة في بطن «فندا»، وصفعةً على خدّ

Twitter: @ketab_n

«ليوناردو»، وبصقةً على وجه «إدواردو». ولم يسلم من أذاها غير العمّة «ماروكاس» التي انفجرت بالضّحك وهي جالسة على الكرسيّ الوحيد المتنازع عليه في الغرفة، وشحمُها كلّه يهتزّ من شدّة هذا الزلزال.

- آه، كم هذا مُضحكٌ!

وسرعان ما نقلت العمّة «ماروكاس» هذه العدوى إلى «المدهون» نفسه، فتحوّل من البكاء إلى الضحك، لكنّ انفجار ضحكة هذا الزنجيّ كانَ أكثر إخافة من بكائه، بل كان كقصف الرّعد في الغرفة. والأسوأ من ذلك أنّ «فندا» سمعت، دون سواها، ضحكةً أخرى متخفيّة خلف ضحكة «المدهون»، وهي ضحكة «كينكاس» الّذي كان يتلهّى بصورة مجنونة.

-ماذا تعنين بهذه الزّوبعة التي أثرتها؟

قالت «فندا» مخاطبة عمّتها بنبرة جافّة قضت على كلّ محصول الوئام الناشئ بينهما حديثا.

فنهضت العمّة «ماروكاس» وخطت بضع خطوات في الغرفة تحت رقابة «المدهون» الّذي كان يجسّها بنظراته من رأسها إلى أخمص قدميها، فهو مفتون بهذا الصنف المكتنز من النساء. صحيح أنّها مسنّة بعض الشيء، ولكنّها ضخمة وطويلة. وهذا ما يعشقه في المرأة دون سواه، فلم يكن يحبّ مطلقا أولئك النسوة النحيفات اللّواتي لا يستطيع الامتلاء بمعانقتهنّ جيّدا. آه، لو أنّه يلتقي بهذه السيّدة على الشاطئ، فسوف يقومان دون شكّ بمصائب ما بعدها مصائب. وهكذا كانت بعض النظرات الخبيرة من عينيه، كافيةً لتحديد نوعيّتها بسرعة. أمّا هي، حبيبته «ماروكاس»، فسرعان ما شعرت بالتعب، وتوتّرت أعصابها فأعلنت عن رغبتها في العودة إلى البيت. لم تُعرها «فندا» أيّ اهتمام وظلّت جالسة على الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه العمّة، قريبا من

Twitter: @ketab_n

التابوت وكأنّها تحرس كنزا. فقال «إدواردو»:

- كلّنا متعبون...

وأردف، «ليوناردو» متوجّها إليهما معا:

- ومن الأفضل أن تذهبا الآن..

كان متخوّفا من شارع «طوباو» في الساعات المتأخرة من اللّيل، فبعد قليل حين تختفي حركة التجار تماما وتُقفل الدكاكين، سيمتلئ بالعاهرات واللّصوص ويعمل كلّ واحد على اصطياد زبائنه من المارّة.

فتدخّل «العريف» بكلّ أدب ولباقة معلنا عن رغبته في التعاون مع العائلة:

- إذا كان سيّداتي سادتي يرغبون في العودة إلى البيت للرّاحة والنوم قليلا، فإنّنا سنتكفّل بالعناية به.

كان «إدواردو» يعرف جيّدا أنّ ذلك لا يمكن أن يحدث: فمن المستحيل ترك الجثمان وحيدا مع أولئك البشر دون إبقاء فرد من العائلة. ولكن هل يقبل الاقتراح؟ أفّ! كم سيطول السهر على هذه الجثّة البائسة.. وهو الّذي يقضّي اليوم كلّه في دكّانه، يركض إلى هذه الجهة أو تلك، لخدمة الزبائن أو لإصدار الأوامر لعمّاله المعتوهين.. من الطبيعيّ أن يذهب إلى النوم مبكّرا ليستيقظ، كعادته، عند الفجر، فيبدأ يوما جديدا من العمل الشاقّ، لا يخلد منه إلى الرّاحة إلاّ مساء، حين يعود منهكا من الدكّان فيأخذ حمّاما، ويتعشّى بعد ذلك، ثمّ يسترخي على كرسيّه الطويل ويمدّ ساقيه إلى أن يأخذه النعاس.. أيّ شقيق لعين هذا؟ لم ينل منه غير المتاعب. طيلة عشر سنوات وهو يتفنّن في إزعاجه بمصيبة تلو أخرى، وها هو يرغمه في هذه اللّيلة على البقاء واقفا وليس في معدته غير بعض السندويتشات الهزيلة لا حول فيها ولا قوّة. لماذا لا يتركه رفقة أصدقائه، بل رفقة هذه الشرذمة من المتشرّدين

Twitter: @ketab_n

الّذين كان مهووسا بصحبتهم سنوات وسنوات؟ ماذا يفعل هنا في حظيرة الخنازير هذه وعشّ الفئران؟ وماذا تفعل «ماروكاس» و«فندا» و«ليوناردو»؟ لم تكن لديه الشجاعه الكافية للإفصاح عن آرائه تلك: فـ«فندا» وقحة جدّا، ولن تتوانى في تذكيره بالمناسبات العديدة التي احتاج فيها، هو «إدواردو» نفسه، إلى أموال «كينكاس». لذلك لم ينبس بحرف و اكتفى بالنظر إلى «العريف» بنوع من العطف والاهتمام.

وبعد عدّة محاولات فاشلة في إقناع «المدهون» بالنهوض عن الكرسيّ استطاع «رشيق الحركة» أن يجلس أخيرا. كان يريد أن يضع الضفدعة على راحة يده ويلعب معها، فلم يسبق له أن رأى من قبل ضفدعة بمثل جمالها، بينما راح «الطائر الجميل» الّذي قضّى قسما من طفولته في ملجإ أيتام تحت إدارة القساوسة يفتّش في ذاكرته التّلِفَة عن صلاة كاملة. فقد كان يسمع دائما من يقول إنّ الموتى في حاجة إلى الصلوات.. والكهنة. ولكن هل جاء القسّ؟ أم أنّه سيأتي غدا فقط؟ دغدغ السؤال لسانه فلم يتمالك نفسه عن طرحه:

-هل جاء القس؟

- غدا صباحا...

أجابت «ماروكاس».

فرمقتها «فندا» بنظرة حادّة من عينيها. لماذا تواصل التحدّث مع هذه الحثالة؟ لكنّها سرعان ما تمكّنت من فرض مناخ من الخشوع داخل الغرفة فانتابها الإحساس بأنّها أفضل حالا الآن، لا سيّما بعد أن طردت المشردين الأربعة إلى زاوية الغرفة وأطبقت عليهم الصمت. ومهما يكن، فلا هي ولا العمّة «ماروكاس» بوسعهما قضاء اللّيلة هنا. في البداية كان أملها كبيرا في مغادرة أصدقاء كينكاس الوقحين مبكّرا، لاسيّما في ظلّ غياب أيّ نوع من أنواع الطعام والشراب. ولكنّ أملها

Twitter: @ketab_n

سرعان ما تهافت أمام إصرارهم على البقاء إلى جانب الميّت... لم تكن تفهم سرّ بقائهم المريب، والأكيد أنّ ذلك لا يمكن أن يكون بسبب صداقتهم للميت، فهذا الصنف من البشر لا يعرف معنى الوفاء ولا الصداقة. وفي كل الأحوال فإنّ الحضور المزعج لأولئك الأصدقاء ليس له أيّة أهمية ماداموا لن يحضروا الدفن في اليوم التالي. ففي الصباح، و أثناء عودتها من أجل مراسم الدفن، ستُعيد وحدها إدارة الأحداث من جديد، ولن يكون في تشييع الجثمان أحد غير أفراد العائلة. وحينها فقط يمكنها أن تراقب عن كثب «جواكيم سواريس دا كونيا» وهو يُشيَّعُ إلى مثواه الأخير بطريقة متواضعة ولكنّها شريفة.

نهضت من الكرسي ونادت العمّة «ماروكاس»:

- هيّا بنا.. لقد حان الوقت.

ثمّ التفتت إلى «ليوناردو»:

- لا تتأخر كثيرا، فلا يُعقل أن تُضيع كامل الوقت في هذا المكان، وقد سبق للعمّ «إدواردو» أن وعدنا بقضاء اللّيلة كلّها هنا.

أومأ «إدواردو» برأسه علامة على الموافقة، وسارع باحتلال الكرسيّ الشاغر، بعد أن وقف «ليوناردو» لمرافقتهما إلى محطة الترام. وجازف «العريف» بالقول: «ليلة سعيدة سيّداتي...»، فلم يصله غير شخير «المدهون» المفزع، فيما ضوء الشمعتين الخافت يجاهد وحيدا لإضاءة الغرفة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

X

في العاشرة ليلا استيقظ «ليوناردو» متألّما من الجلوس على صفيحة «الكيروزين» الفارغة، واقترب من الشمعتين ليرى الساعة. ثمّ أيقظ «إدواردو» الّذي كان يغفو على كرسيّه المزعج بفم مفتوح:

-أنا ذاهب الآن. سأعود في السادسة صباحا لأتيح لك الوقت للعودة إلى البيت وتغيير ملابسك.

مدّ «إدواردو» سَاقيْه وفكّر في سريره، وهو يشعر بألم في عنقه، بينما كان «الطائر الجميل» و«رشيق الحركة» و«مارتان العريف» منكفئين في إحدى زوايا الغرفة، يواصلون بصوت منخفض نقاشا حارّا حول تركة المرحوم: من منهم سيخلف «كينكاس» في التسلّل إلى قلب «كيتاريا جاحظة العينين» والتربّع على سريرها؟ وقد كان «العريف» في تلك اللّحظة يندّد بأنانيّة أصدقائه المثيرة... وهو غير موافق على شطب اسمه من قائمة الورثة لمجرّد أنّ له قلبًا رقيقًا وقواما رشيقًا مثل الزنجيّة الصغيرة «كارميلا». حدّق «إدواردو» إلى هذه الشرذمة الضالّة، فيما كان وقع أقدام «ليوناردو» يتلاشى في الشارع شيئا فشيئا...فتوقّف النقاش. وابتسم العريف ملاطفا «إدواردو» الّذي كان ينظر بحسَدٍ إلى «المدهون» وهو يغطّ في أحلى نعاس. أحسّ بالانزعاج مجدّدا على الكرسيّ فوضع قدميه على صفيحة «الكيروزين»، والألم ما يزال مُتشبّثا بعنقه. لم يعد «رشيق الحركة» يتمالك نفسه، فسحب الضفدعة من جيبه ووضعها أرضًا، فقفزت على الفور. يا لها من ضفدعة مسلّية! لقد بدت مثل شبح طليق في الغرفة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن «إدواردو» قادرا على النوم. فنظر إلى الميت الساكن في التابوت. كان الوحيد الّذي ينعم بالرّاحة كما ينبغي... فما الّذي جاء به إلى هنا بحق الشيطان؟ ما الّذي جعله هو «إدواردو» كلبَ حراسة في هذا المكان؟ ألا يكفي أنه سيحضر الدفن؟ ألم يدفع جزءا من المصاريف؟ لقد قام بأكثر من واجبه كأخ سابق، خصوصا إذا علمنا أيّ نوع من الإخوة كان «كينكاس».. كان فضيحة وطاعونا..

نهض، حرّك ساقيه وذراعيه، وفتح فمه ليتثاءب. فخبّأ «رشيق الحركة» الضفدعة الخضراء في يده، فيما واصل «الطائر الجميل» التفكير في «كيتاريا جاحظة العينين». إنّها امرأة عظيـ....

ووقف «إدواردو» أمامهم:

- دعوني أسألكم شيئا...

واتّخذ «العريف» العالمُ النفسيّ بالفطرة وقفةَ التأهّب:

-تحت أوامرك سيدي القائد!

فمن يدري.. لعلّ التاجر يريد أن يرسله ليشتري شرابا يساعدهم على قضاء الليلة الطويلة؟

- هل أنتم عازمون على قضاء اللّيلة كلّها هنا؟

- قرب «كينكاس» ؟ أجل سيّدي. لقد كان صديقنا.

- إذن، سأذهب إلى البيت لأرتاح قليلا.

ودسّ يده في جيبه وسحب منه ورقة ماليّة، قبضَتْ عليها على الفور نظراتُ «العريف» و«الطائر الجميل» و«رشيق الحركة»...

- هي لكم لتشتروا بها بعض السندويتشات. و لكن لا تتركوه وحيدا ولو دقيقة واحدة. هممم!

- لا تقلق أبدا... سنظلّ برفقته..

واستيقظ «المدهون» أوّلَ ما تناهت إلى أنفه رائحة «الكَشاسا».

Twitter: @ketab_n

قبل ذلك أشعل «الطائر الجميل» و«رشيق الحركة» سيجارة، وتناول «العريف» سيجارا واحد من السجائر السوداء القوية التي تُباع بخمسين سنتا، ولا يعرف قيمتها إلاّ المدخّنون الحقيقيّون، ونفث دخانه القوي على أنف الزنجيّ دون أن يجدي نفعا في إيقاضه. و لكن، ما إن فتحوا الزجاجة (وهي الزجاجة الأولى التي جرى نقاش كبير حولها، وادّعت العائلة بأنّ «العريف» حملها معه وأخفاها تحت القميص) حتّى فتح «المدهون» عينيه طالبًا جرعة.

أيقظت الجرعات الأولى في الأصدقاء الأربعة ميلهم الجارف إلى النقد، فاتّهموا عائلة «كينكاس» الغارقة في شحم الغرور، بالحقارة والبخل. إذ لم تقم إلاّ بنصف المطلوب في كل شيء. فأين هي الكراسي ليجلس عليها الزوار؟ وأين هي المآكل والمشروبات المألوفة حتّى في سهرات أفقر الأموات؟ لقد خاض «العريف» تجربة طويلة في حضور المآتم، ولا يذكر أنّه رأى في حياته سهرة كهذه.. حتّى في مآتم المُعدمين من أفقر النّاس، كانت تُقدّم القهوة وجرعة من «الكَشاسا» على الأقلّ... بصراحة، «كينكاس» لا يستحق مثل هذه المعاملة! ولماذا هذا التعالي الزائف من قبل العائلة إذا كانت متفنّنة في إذلال الميّت وفي عدم احترام أصدقائه بتقديم أيّ شيء من الطعام أو الشراب لهم؟

خرج «الطائر الجميل» و«رشيق الحركة» بحثا عن الكراسي والطعام. وراح «العريف» يفكّر في طريقة لتنظيم السهرة بأقلّ ما يمكن من اللياقة الزائفة، ثمّ اعتلى كرسيّه وبدأ إصدار الأوامر: صفائح فارغة وزجاجات... بينما كان «المدهون» الجالس على صفيحة «الكيروزين» يومئ برأسه مُصادقًا على هذه القرارات.

لابد من الاعتراف في ما يتعلّق بالجثمان في حدّ ذاته، بأنّ العائلة قامت باللاّزم: ملابس جديدة. حذاء جديد. أناقة وشموع جميلة

Twitter: @ketab_n

مثل شموع الكنيسة. ولكن أين الزهور؟ هل سمع أحدكم بجثمان دون زهور؟ وانفجر «المدهون»:

- يا أبناء الزّنى، هذا سيّد حقيقيّ ومرحوم جميل.

ابتسم «كينكاس» لهذا الإطراء، فبادله الزنجيّ ابتساما بابتسام:

- هذا صحيح، يا أبي

قالها متأثرا وهو ينقرُ أضلع «كينكاس» بإصبعه كما كان يفعل عادة حين يسمع نكتة جيّدة منه.

عاد «الطائر الجميل» و«رشيق الحركة» ببعض الصفائح الفارغة وقطعة من السجق وما تيسّر من زجاجات «الكَشاسا»... وحينها تحلّق الجميع في شبه دائرة حول الميّت، بعد أن اقترح «الطائر الجميل» على أصدقائه أن يتلوا معا صلاة «أبانا الّذي في السموات» مؤكّدا أنّه يحفظ نصّ الصلاة وبإمكانه أن يتذكّره كاملا.. فاستجابوا لرغبته، ولكن دون اقتناع، فلم يكن الأمر يبدو لهم بالسهولة التي يتحدّث بها.. ومن جهته أعلن «المدهون» أنّه يعرف بعض الأدعية الخاصّة بـ«أوشوم»[1] و«أوشالا»[2]، ولكنّ ذاكرته الدينيّة لا تُسعفه بها الآن. أمّا «رشيق الحركة» فلم يتلُ صلاة واحدة منذ ثلاثين سنة، في حين كان «العريف» يعتقد أنّ الصلوات والكنائس علامات ضعف، لا تتلاءم مع الحياة العسكرية. و مع ذلك فقد حاولوا التلاوة: بدأ «الطائر الجميل» يتلو الصلاة، وعوض أن يردّد الآخرون ما يقوله في شكل جوقة أخذ كلّ واحد منهم ينشد منفردا حتّى استنفد «الجميل» طاقته على الصبر، وصرخ بعصبيّة وهو جالس على ركبتيه وجبهته نحو الأرض في وضعيّة المتضرّع:

---

(1) «أوشوم»: إله الماء العذب في الديانة الأفرو-برازيلية.

(2) «أوشالا»: إله أكبر من «أوشوم» ويتمثّل في بعض الأحيان في صورة يسوع المسيح.

Twitter: @ketab_n

- حقًا، إنّكم قطيع من الحمير...

فقال «العريف» مُهدّئا من غضب صديقه:

- إنّه ناجم عن النقص في التدريب... و لكنّنا فعلنا شيئا ما على الأقلّ. والباقي يُكمله القسّ غدا.

من جهته بدا «كينكاس» لا مُباليا بالصلاة... لعلّه كان يشعر بالحرّ في تلك السُترة السميكة.. تفحّص «المدهون» صديقه وهو يفكّر في ضرورة القيام بأيّ شيء لإسعاده فتراتيل الصلاة لم تكن صحيحة على ما يبدو، ربّما يجب أن يغنّوا له بعض أغاني «الكوندمبلاي».. كان ينبغي فعل شيء، وفجأة التفت إلى «رشيق الحركة» وقال له:

-هات الضفدع؟ لنُعطه له...

- ليس ضفدعا، إنّه ضُفيْدعة، ولكن بماذا ستُفيده الآن؟

- قد تُعجبه..

أمسك «رشيق الحركة» الضفدعة بلطف، ووضعها بين يدي «كينكاس» المتصالبتين، فقفز الحيوان الصغير واختفى في عمق التابوت، ولكن، حين كان ضوء الشموع المتراقص يضرب جسمه الصغير، كانت بعض البروق الخضراء تنعكس على جسد الميّت.

وعاد «العريف» و«الطائر الجميل» إلى النقاش مرّة أخرى حول «كيتاريا جاحظة العينين». ومع جرعات «الكَشاسا» صار «الطائر الجميل» أكثر عدوانيّة فرفع صوته دفاعا عن وجهة نظره... فنهره «المدهون» موبّخا:

ـ ألا تشعر بالخزي وأنت تتصارع على امرأته أمام عينيه؟ لحمه مازال ساخنا وأنتما كطائر البغاث الأسود تقتاتان من جيفة ساكنة؟

- هو وحده من يستطيع أن يقرر...

أجاب «رشيق الحركة».

Twitter: @ketab_n

لقد كان يأمل أن يختاره «كينكاس» لوراثة «كيتاريا»، كنزه الوحيد... ألم يأتِه بضفدعة خضراء، هي الأجمل من بين كلّ ما اصطاد؟

-هممم!

ردّ المرحوم.

فصاح الزنجيّ غاضبا:

-أرأيت؟ إنّه لا يحبّ هذا الحديث.

- هيّا.. لِنُعطِهِ هو أيضا جرعة معنا...

هكذا اقترح «العريف»، راغبا في كسب رضى المرحوم. ففتحوا فمه و سكبوا فيه جرعة من «الكَشاسا» ما لبثت أن فاضت على طوق السترة وعلى ياقة القميص.

-لم يسبق لأحد أن رأى شخصا يشرب وهو نائم!

- من الأفضل أن نُجلسه، وهكذا يستطيع أن يرانا كما ينبغي.

وبالفعل، سرعان ما رفعوه وأجلسوه داخل الصندوق، فراح رأسه يتمايل من جهة إلى أخرى، وبعد جرعة ثانية من «الكَشاسا» اتّسعت ابتسامته.

صاح «العريف» وهو يتفحّص القماشة:

- سترة فاخرة! ومن البلاهة إكساء جثّة مثل هذه الثياب الجديدة الفاخرة، فعندما يموت المرء، يموت وينتهي معه كلّ شيء، فيرحل إلى باطن الأرض.. هكذا هو الأمر ببساطة.. سترة فاخرة ليأكلها الدود، في حين يئنّ مئات النّاس من العراء!

وفكّر الآخرون في قرارة أنفسهم: إنّها كلمات تنضح بالحقيقة... لقد حان دور «كينكاس»، امنحوه جرعة أخرى... وهزّ الميّت رأسه، فقد كان رجلا يُعطي الحقّ لمن يستحقّه، وهو بالتأكيد، موافق على آراء «العريف».

Twitter: @ketab_n

- هكذا سيُتلف ملابسه.

- من الأفضل نزع سترته كي لا تتسخ.

بدا «كينكاس» في غاية الراحة عندما نزعوا عنه السُترة السوداء الثقيلة. ولكن بما أنّه استمرّ في احتساء «الكَشاسا»، فقد خلعوا عنه قميصه أيضا. كان حذاء «الطائر الجميل» مترهّلا باليا، فظلّ يداعب بعينيه الناعمتين حذاء المرحوم البرّاق:

- أليس الميّت في غنى عن مثل هذا الحذاء الجديد؟ أليس كذلك يا «كينكاس»؟

- ذلك رأيي تماما.

- إنّه على مقاس قدمي بالضّبط...

وألبس الجثّة حذاءه القديم البالي.. لقد نزعوا عنه ثيابه قطعةً بعد أخرى وتقاسموها، ثمّ جمع «المدهون» ملابس صديقه القديمة الملقاة في زاوية الغرفة وألبسوه إيّاها وحينها فقط تمكّنوا من التعرّف إليه:

- أجل، هذا هو «كينكاس» العجوز.

شعروا جميعا بالفرح، وحتّى «كينكاس» بدا أكثر سعادة هو الآخر، بعد أن تخلّص من تلك الملابس المزعجة. وكان ممتنّا بصورة خاصّة من «الطائر الجميل» فقد كان الحذاء يعتصر قدميه ويضغط على أصابعه، فاغتنم هذا الأخير الفرصة ليقرّب فمه من أذن «كينكاس» ويهمس له بشيء ما بخصوص «كيتاريا». لماذا فعل ذلك بحقّ الجحيم؟ لقد كان المدهون مُحقّا تماما حين حذّر من أنّ «كينكاس» لا يُطيق أيّ حديث عن هذه الفتاة... فها هو يبصق ما في فمه من «الكَشاسا» في عين «الطائر الجميل» وهو يرغى ويزبد من الغضب... أمّا الآخرون فقد ارتجفوا مذعورينَ، بعد أن تملّكهم الرّعب:

Twitter: @ketab_n

-لقد جُنّ جنونه..

- ألم أقل لكم ذلك؟

كان «رشيق الحركة» قد ارتدى السروال الجديد، واستولى «العريف» على السُّترة، وفكّر «المدهون» في أنّه يستطيع أن يقايض بالقميص مقابل زجاجة «كَشاسا» في إحدى الحانات التي يرتادها. وتحسّروا جميعا على الثياب الداخليّة التي لم تكن موجودة، فقال «العريف» لـ«كينكاس» بنبرة فيها الكثير من الجديّة:

- قد يكون ما فعلناه بك غير منطقيّ. لكنّ عائلتك مدرسة في البخل.. حتّى أنّ صهرك سرق ثيابك الداخليّة، هل تتصوّر ذلك؟

كان «كينكاس» أكثر صراحة منهم، فهتف شاتما:

-وجوه جوع...

- حسنا، ها أنت قلتها بنفسك، إنّها الحقيقة المرّة للأسف. فنحن لم نشأ توسيخهم، لأنّهم في النهاية أهلُك. ولكن يا للبخل! يا للشحّ! المشروب على حسابنا! أين رأى أحدكم سهرة مؤانسة ميّت بهذا الشكل؟

-تصوّر.. ولا زهرة واحدة حتّى ...

قال المدهون مساندا.. ثمّ أضاف:

- إنّني أفضّل اليُتم على أن يكون لي أهل من هذه الفصيلة الرديئة.

- الرجال حمير والنساء حيّات

هكذا أوضح «كينكاس» بلهجة قاطعة.

- انظر، يا أبانا، تلك السمينة مازالت تصلح لشيء ما، فعندها مؤخّرة شهوانية.

- كيس من الضراط!

- لا تقل هذا يا أبانا.. صحيح أنّها مترهّلة بعض الشيء، ولكنّها

Twitter: @ketab_n

ليست سيّئة إلى هذا الحدّ، فلقد رأيت فعلاً ما هو أسوأ!
-زنجيّ حمار! لا يعرف ما معنى امرأة جميلة!
فتدخّل «رشيق الحركة» محاولا انتهاز الفرصة:
-الجميلة حقّا هي «كيتاريا»... إنّها شيء آخر... هممم... أليس كذلك أيّها العجوز؟ ماذا تراها فاعلة الآن؟ في الحقيقة، أنا مستعد أن....

فقاطعه «الطائر الجميل»:
-اخرس.. عليك اللّعنة.. هل تُريد أن تُجنّنه مجدّدا؟
لكنّ «كينكاس» لم يكن يصغي إليه، بل مال برأسه إلى جانب «العريف مرتان» الذي كان يحاول في تلك اللّحظة بالذّات أن يختلس حصّته من دورة «الكشاسا»، وبصق عليه، فكاد يسقط الزجاجة بضربة رأس.
وحينها تدخّل «المدهون» مخاطبا صديقه بحزم:
- أعطِ والدنا حصّته أيّها اللصّ.
- لكنَّه يبذّرها ويبصقها من فمه!
ردّ «العريف» موضّحا.
- دعه يشرب كما يشاء. هذا حقّه!
فوضع «العريف» عنق الزجاجة في فم «كينكاس» المفتوح وهو يقول:
- على مهلك أيّها الرفيق العزيز... لم أكن أريد أن أؤذيك. اشرب على هواك. فالحفلة حفلتك...
كانوا قد تخلّوا عن النقاش حول «كيتاريا»، فلم يكن «كينكاس» يسمح بمجرّد طرح الموضوع.
وصاح «الطائر الجميل» بإعجاب:
- هذه «كَشاسا» رائعة!

Twitter: @ketab_n

-بل متعفّنة

صحّح «كينكاس» وهو الخبير العارف..

- رائعة بالقياس إلى سعرها...

قفزت الضفدعة على صدر كينكاس. فظلّ ينظر إليها بإعجاب ولم يلبث أن دسّها في جيب سترته العتيقة القذرة.

وبزغ قمر «باهيا» في السماء مُوزّعا نوره الفضيّ على المدينة والمياه.. وسرعان ما تسلّل عبر النافذة، ومعه تسلّل هواء البحر فأطفأ الشموع وغمر الظلامُ الغرفةَ وخيّم على التابوت... في تلك اللحظات تناهت إليهم من الشارع موسيقى قيثار مصحوبة بصوت امرأة تتغنّى بعذابات الحبّ. فلم يتمالك «العريف» نفسه عن الغناء...

- «كينكاس» يحبّ أن يسمع أغنية...

غنّى الأربعة بانسجام، وكان صوت «المدهون» يتلاشى عبر مدارج السوق، نحو حوض قوارب الصّيد حيث كانوا يشربون ويغنّون بحضور «كينكاس» الّذي يعشق الغناء الجميل... ولم يكن يفوّت أيّة جرعة حينها، ولا كان يغيب عن باله أيّ لحن...

وفجأة سأل «الطائر الجميل»:

- أليس اللّيلة موعد تقديم طبق «مُوكاكا» الكابتن «مانويل»؟

- بلى، إنّه اللّيلة بالذّات..

أجاب «رشيق الحركة» ثمّ أردف:

- واللّيلة، هناك «مُوكاكا» بالسمك.

وأكّد «العريف» قائلا:

- لا أحد يعدّ «مُوكاكا» مثل «ماريا كلارا».

ومدّ «كينكاس» لسانه. فانفجر «المدهون» مُقهقها:

- إنّه يعشق «المُوكاكا» بجنون!

Twitter: @ketab_n

- لماذا لا نذهب إذن؟ إذا تخلّفنا فإنّ الكابتن «مانويل» سيستاء لغيابنا...

تبادلوا النظرات متردّدين، لقد تأخّروا قليلا عن الموعد. وعليهم قبل ذلك أن يذهبوا لإحضار النساء... فصارحهم «الطائر الجميل» مُذكّرا:

- لقد وعدنا بأنْ لا نتركه وحيدا.

- وحيدا؟ ومن سيتركه وحيدا؟ سيأتي معنا.

صاح «المدهون»:

- أنا جائع.

وسألوا «كينكاس»:

- هل تريد أن تذهب معنا؟

- وهل أنا مشلول لأبقى هنا؟

جرعةً جرعةً وغدت آخر الزجاجات فارغة تماما. ثمّ أوقفوا «كينكاس»، فعلّق «المدهون»:

- هو سكران إلى درجة أنّه لا يستطيع الوقوف، فمع تقدّمه في السنّ لم يعد قادرا على تحمّل «الكَشاسا»..

- تعال يا أبي، لنذهب من هنا..

قال «المدهون» مُمسكًا بذراع «كينكاس»، وقد أعطاه «العريف» ساعده هو الآخر. وانطلق الموكب المهيب: «الطائر الجميل» و«رشيق الحركة» في المقدّمة، وخلفهما «كينكاس» في غاية السرور وهو يتقدّم بخطى راقصة بين «الزنجيّ المدهون» و «مارتان العريف»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

XI

ستبقى تلك اللّيلة موشومة في الذّاكرة، لا يقوى عليها النسيان، ولا تدركها يُد الغياب مهما جرى. كان «كينكاس هدير الماء» في أحلى أيّام حياته، فسَرى في الجماعة حماسٌ غير معهود، أحسّوا بأنّهم أسياد الكون في تلك الليلة المدهشة، عندما أضفى القمر غلالة من السحر على مدينة «باهيا» زادتها فتنة وغموضا.

كان العُشّاق في منحدر «بوليرينيو» يلوذون بالبوّابات العتيقة، والقطط تموء فوق السّطوح، ومن تحت النوافذ كانت ألحان الحبّ تنساب صافية من القيثارات... حقّا، لقد كانت ليلة مسحورة ساحرة... خفقان الطبول يتناهى إلى الأسماع من بعيد... ومنحدرُ «بوليرينيو» المألوف صار أشبه بمنصّة سحريّة لا يتحرّك فوقها غير الملائكة والأشباح..

وكان «كينكاس هدير الماء» في ذروة البهجة عابثا بكلّ شيء، فمرّةً يُحاول أن يعرقل «العريف» و«المدهون» معا، ومرّةً يُخرج لسانه للمارّة وكأنّه يسخر من الناس جميعا، وأحيانا يميل برأسه على أحد الأبواب ليتجسّس بخبث على عشيقين مُتلاشيين في الحبّ، ومع كلّ خطوة كان يعلن عن رغبته في التمدّد على الشارع، فمشى الأصدقاء الخمسة على مهل وكأنّ الزمان مجرّد خادم عندهم، أو كأنّهم يعيشون خارج رزنامة الأيّام، وكأنّ تلك اللّيلة الساحرة في «باهيا» يجب أن تمتدّ أسبوعا آخر على الأقل. وفي الواقع، لقد كان «المدهون» على حقّ حين أعلن أنّ احتفالا عظيما مثل الاحتفال بعيد ميلاد «كينكاس هدير

Twitter: @ketab_n

الماء» لا يمكن أن يُعتَصَر في بضع ساعات. والجميل أنّ «كينكاس» لم ينكر على الإطلاق بأنّ هذا اليوم هو عيد ميلاده رغم أنّ الآخرين لا يذكرون أنّهم احتفلوا به في السنوات الماضية ولو مرّة واحدة، وكلّ ما كانوا يذكرونه هو احتفالاتهم بغراميّات «الطائر الجميل» المتجدّدة على الدوام، واحتفالاتهم بأعياد ميلاد «ماريا كلارا» و«كيتاريا»، وفي مرّة من المرّات النادرة احتفلوا بمناسبة الاكتشاف العلميّ الذي حقّقه أحد علماء المخابر الذين يزوّدهم «رشيق الحركة» بالضفادع والفئران. ففي غمرة بهجته بهذا الاكتشاف وضع العالم الجليل في يد «مساعده المتواضع» ورقة نقديّة من فئة الخمسمائة. أمّا الاحتفال بعيد ميلاد «كينكاس»، فإنّه يحدث للمرّة الأولى في التاريخ.

كانوا يسيرون على منحدر «بوليرينيو» قاصدين بيت «كيتاريا»، وحين وصلوا بدا لهم كلّ شيء في المكان مُثيرا للغرابة والشكّ! أين ضوضاء الحانات وصخب بيوت الدعارة في «ساو ميغل»؟ هل قامت دوريّة الشرطة بغارة مفاجئة وأغلقت المباغي والحانات؟ لا بد إذن أن يكون المحقّقون قد أخذوا «كيتاريا» و«كراميلا» و«دوراليس» و«مارغاريدا السمينة»! وقد نقع بدورنا في الفخ! لذلك تولّى «العريف» قيادة العمليّات على الفور، فأرسل «الطائر الجميل» لاستكشاف المكان:

- خذ معك حرَسًا مُرافقا.

أوضح العريف بنبرة حازمة.

ثمّ جلسوا على درجات كنيسة «لارغو» منتظرين عودة الكشّافين. وفي حوزتهم ما تزال زجاجة كاملة تنتظر الرّحمة، بينما استلقى «كينكاس» على ظهره مُقلّبا ببصره السماء.. مبتسما لضوء القمر.

وسرعان ما عاد «الطائر الجميل» مرفوقا بـ «شلّة» صاخبة، تهتف وتهلّل.. وفي مقدّمتها كانت تبرزُ بوضوح صاحبة الوجه المهيب «كيتاريا

Twitter: @ketab_n

جاحظة العينين» وقد تسربلت بالسّواد من رأسها إلى أخمص قدميها، تكاد تسقط من وقع الصدمة لولا امرأتان كانتا تسندانها:

- أين هو؟ أين هو؟

صرخت بكلّ لهفة، فسارع «الطائر الجميل» بالتدخّل واعتلى المدرج بخطوات برقيّة. فبدا بلباسه الأسود الرسميّ أشبهَ بسياسيّ مُحنّك في حشد من الجماهير:

- أيّها الناس، لقد سرَتْ إشاعةٌ مفادُها أنّ «هدير الماء» لقي حتفه، فخيّم الحزن ولبس الجميع ملابس الحداد...

وهنا تداخل الصّوت بقهقهة «كينكاس» وأصدقائه، فصمت «الطائر الجميل» لحظة، ثمّ واصل:

- إذن، إنّه هنا، أيّها النّاس.. اليوم عيد ميلاده، وها نحن نحتفل به. سنقيم وليمة في مركب صيد الكابتن «مانويل».

وفي تلك اللّحظة تحرّرت «كيتاريا جاحظة العينين» من ذراعيْ «دوراليس» و«مارغو السمينة»، وحاولت أن تتحرّك في اتجاه «كينكاس» الجالس إلى جانب «المدهون» على إحدى درجات الكنيسة. ولكنّها سرعان ما فقدت توازنها بسبب التأثّر العميق في تلك اللحظة الخارقة، دون شكّ، ووقعت على مؤخّرتها. فساعدوها في النهوض على الفور وقرّبوها منه:

- لصّ! كلب! سافل! ماذا فعلنا لك لكي تنشر هذه الإشاعة وتزرع في قلوبنا الذعر؟

وجلَسَتْ إلى جانب «كينكاس» المبتسم، وأمسكت يده و وضعتها على صدرها القوي لكي يحسّ بنبض قلبها المذعور:

- لقد تمنّيتُ الموت حين بلغني الخبر، بينما أنت تضحك طوال الوقت مستمتعا بهذا «المَقْلَب».. لا شيء ينفع معك أيّها السكّير المخبول

Twitter: @ketab_n

يا «هدير المـ...اءءء»! يا مُعلّم الشيطان! كدت أظنّني لن أفعل معك أيّ شيء لذيذ بعد اليوم! لا... لا... كيف يمكن ذلك؟ لقد كدت تتسبّب في موتي!

واتّجهوا صوب بيت «كيتاريا» والقهقهات العالية تقطع أحاديثهم من حين إلى آخر، فيما عادت الضوضاء إلى الحانات مُجدّدا وانبعثت الحياة على طول منحدر «ساو ميغيل»، وكانت «كيتاريا» في لباسها الأسود تفيض جمالا على كلّ من حولها، فلم يشتهوها من قبل مثلما اشتهوها تلك اللّيلة.

في طريق عودتهم عَبْر «ساو ميغيل» وجدوا أنفسهم موضوع تظاهرات متعدّدة، ففي حانة «فلور دي ساو ميغيل» أهداهم الألماني «هانسن» جولةً من جرعات «البينغا»، وأبعد قليلا إلى الأمام، وزّع الفرنسي «فيرجاي» تمائم إفريقيّة على النساء.. ولم يستطع أن ينضمّ إلى الموكب، لأنّه كان ملتزما باحتفال دينيّ. وعادت أبواب المواخير لتُفتح من جديد، فأطلّت النساء من النوافذ وظهرن على الأرصفة، وفي الطريق كان النّاس يشاهدون «كينكاس» فيهتفون باسمه ويحيّونه وكان يردّ التحيّة بإيماءة من رأسه وكأنّه ملك عائد إلى مملكته بعد النصر.

وفي بيت «كيتاريا» كان كلّ شيء يشي بالحداد والحزن، ففي غرفتها بدت صورة «كينكاس» واضحةً إلى جانب صورة القديس «بونفيم» والمجسّم الطيني لمرشدها في ديانة «الفودو» وحاميها الخارق «كلو أروايرا»، وهي صورة مقتطعة من إحدى الجرائد، نُشرت ضمن سلسلة من التحقيقات الصحفيّة لـ«جيوفاني غيمارايس»، وضعتها «كيتاريا» بعناية فائقة بين شمعتيْن مُضاءتيْن ووضعت أسفلَها وردةً حمراء يانعة. وإثر دخولهم بادرت «دوراليس» رفيقتها في البيت بفتح زجاجة جديدة، وقدّمت الشراب إلى الوافدين في كؤوس زرقاء. بينما أطفأت «كيتاريا» الشمعتين، وتمدّد «كينكاس» على السرير. ولاذ الآخرون

Twitter: @ketab_n

بغرفة الطعام، ولم يَدُمْ الوقت طويلا حتّى انضمّت إليهم «كيتاريا»:

- لقد نام اللئيم....

- لقد شرب فوق طاقته كثيرا، أيّتها الأمّ الصغيرة..

أوضح «رشيق الحركة»

فتدخّل «المدهون» ناصحا:

-اتركيه ينام قليلا.. فمن المستحيل أن يقدر على فعل شيء اليوم. وهذا من حقه، أليس كذلك؟

ولكنّهم تأخّروا عن مأدبة سمك الكابتن «مانويل». وينبغي إيقاظ «كينكاس» بعد قليل. وسوف ترافقهم «كيتاريا» والزنجية «كارميلا» و«مارغريدا السمينة» . أمّا «دوراليس» فقد اعتذرت عن قبول الدعوة، لأنّها تلقت رسالة من الدكتور «كارمينو» يُعلمها فيها بقدومه في تلك الليلة. والدكتور «كارمينو»، كما هو معلوم، يدفع شهريّا. وذلك وحده كافٍ لعدم التفكير في الإساءة إليه.

نزلوا منحدر الشارع مُسرعين هذه المرّة، وكان «كينكاس» يركض تقريبا، ويتعثّر بالحجارة وهو يجرجر قدميه بين ذراعيْ «كيتاريا» و«المدهون» اللّذيْن يُمسكان بساعديْه، وكانوا يأملون أن يُسعفهم الحظّ ويُدركوا مركب الصّيد قبل أن يُبحر، ومع ذلك فقد توقّفوا في منتصف الطريق عند حانة «كازوزا» صديقهم القديم. وهي حانة سيّئة السُّمعة يتردّد عليها رهط من المُشرّدين المرموقين ومُدمني الماريجوانا، فلا تمرّ ليلة فيها دون شجار. ولكنّ «كازوزا» كان رجلا طيّبا يوزّع عليهم بعض الكؤوس بالدَّيْن وأحيانا يُقرضهم زجاجة كاملة. وبما أنهم لا يقدرون على الذهاب إلى السفينة بأياد فارغة فقد قرّروا التعريج على «كازوزا» لعلّ اللّه يهديه فيمنحهم ثلاث ليترات من «الكشاسا» أو أربع ليترات إن أمكن.

Twitter: @ketab_n

بينما كان «العريف» الديبلوماسي المُحنّك، يوشوش على «الكونتوار» مع صاحب المحلّ المذهول لرؤية «كينكاس هدير الماء» في أفضل حالاته، جلس الآخرون على إحدى الطاولات لفتح شهيّتهم على حساب المحلّ احتفاءً بعيد ميلاد الزعيم... كانت الحانة تغصّ بمدخّني الماريجوانا وبعدد من البحّارة المُبتهجين، والمومسات المهترئات حتّى العظم، وسائقي الشّاحنات المتّجهة في تلك اللّيلة إلى سوق «سنتانا». ولم يكن العراك في تلك الأجواء البهيجة متوقّعا على الإطلاق. ولكنْ ثبت بعد ذلك أنّ «كينكاس» كان المسؤول الأوّل والأخير عن نشوبه.

كان جالسا، ورأسُه مُلقى على صدر «كيتاريا»، وساقاه ممدودتان، وعلى ما يبدو، فقد تعثّر أحد الفتية أثناء مروره بقدميّ «كينكاس» وكاد يسقط، فاحتجّ بأسلوب وقح، لم يستسغه «المدهون» على الإطلاق...

- لـ «كينكاس» في هذه اللّيلة كلّ الحقوق بما في ذلك مدّ ساقيه كما يريد ويشتهي..

هكذا قال «المدهون» لمدخّن الماريجوانا. وبما أنّ الفتى لم يردّ الفعل، فإنّه لم يكن لهذه الواقعة أيّ تأثير يُذكر. ولكن بعد ذلك بدقائق فقط أراد شابّ آخر من مدخّني الماريجوانا أن يمرّ، فرجا «كينكاس» بأن يطوي ساقيه، ولكنّه لم يُعره غير أُذن صمّاء، ضاربا بأدبه المُصطَنع عرض الحائط.. حينها جنّ جنون الفتى فلم يكتفِ بشتم «كينكاس» بأقذر العبارات فحسب، بل ركلَه ركلةً عنيفة على ساقيه، نطَحه «كينكاس» على إثرها بضربة من رأسه، واندلعت المعركة...

أمسك «المدهون» على طريقته المألوفة الشابّ وألقى به على الطاولة المُجاورة، فتحوّل رفاق مدخّن الماريجوانا على الفور إلى وحوش... ومنذ تلك اللّحظة تداخلت الأحداث فلم يعد أحد يعرف ما يقع.. كلّ ما كان يُمكن رؤيته هو «كيتاريا» الجميلة واقفةً على كرسيّ

Twitter: @ketab_n

تلوّح بزجاجة فارغة، و«مارتان العريف» وهو يصدر الأوامر بعد أن تولّى قيادة العمليّات.

وسرعان ما انتهت المعركة بانتصار ساحق لأصدقاء «كينكاس» الّذين انضمّ إليهم سائقو الشاحنات، مخلّفة إصابةً في عين «رشيق الحركة» وشرخا في معطف «الطائر الجميل»، وهي خسارة جسيمة، في حين كان «كينكاس»، ملقى على الأرض، بعد أن تلقى بعض الضربات العنيفة، واصطدم رأسه ببلاط الرصيف. أمّا مدخّنو الماريجوانا فلَمْ يتركوا وراءهم غير غبار الطريق.

انحنت «كيتاريا» على «كينكاس» محاولة رفع معنوياته، بينما كان «كازوزا» يتأمّل بصورة فلسفيّة حانته المقلوبة رأسا على عقب، مفكّرا في أنّ حالة الحانة، بأقدام الكراسي المتطايرة والطاولات المقلوبة والكؤوس التي غدت نُثارا منثورا، ستخدمه بشكل أفضل في قادم الأيّام، فلا شكّ أنّ الخبر سينتشر بسرعة، ويزيد من شهرة المحلّ ومن عدد روّاده.

وبعد جرعة جيّدة، ارتفعت معنويات «كينكاس»، وواصل الشرب بطريقته الغريبة باصقًا بعض «الكَشاسا» في تبذير واضح.. حتّى أنّ «العريف» كان حانقا في قرارة نفسه وهو يرى ذلك المشروب يضيع هباءً: «يا للخسارة.. إنّه شراب ممتاز ولكن ما دام في عيد ميلاده فليفعل به ما يشاء..»

ثمّ غادروا الحانة إلى الميناء.

كان الكابتن «مانويل» ينتظرهم، و«موكاكا» السّمك تنضج ببطء على نار خفيفة فوق رصيف الميناء، وحولها يتحلّق عدد من الصيّادين.. أمّا الكابتن «مانويل» فقد كان في المركب كعادته، ولم يفكّر في النزول إلى البرّ لأنّه لم يصدّق أصلا خبر موت «كينكاس».. فكيف يمكن لـ «ذئب البحار العجوز» أن يموت على سرير رثّ في غرفة بائسة، وأن

Twitter: @ketab_n

يُدفن في التراب، وفي البحر أسماك كافية لالتهام شعب من الموتى؟!!
وحين بلغه النبأ رفضه دون أيّ تفكير، لذلك فإنّه لم يندهش على الإطلاق عندما رأى «كينكاس» قادما وهو يتأبّط ذراع «كيتاريا».

- هناك «موكاكا» بالسمك كافية للجميع....

أرخوا الأشرعة ورفعوا المرساة، فرسم لهم القمر مسلكا فضيّا على صفحة البحر، فيما بدت مدينة «باهيا» ملتحفة بظلالها القاتمة وهي ترقبهم من فوق جبلها الأسود. وابتعد المركب رويدا رويدا وعلى إيقاعه بدأت «ماريا كلارا» تصدح بأغنية بحريّة:

«في أعماق البحار وجدتكِ أخيرا
مجلّلةً حتّى قدميك بالصَدف...»

تحلّقوا حول المرجل وبخاره يتطاير في الفضاء، وامتلأت قدور الخزف بحساء زيت النخيل والفلفل، وبدأت زجاجة «الكَشاسا» تنتقل من يد إلى أخرى. والفضل في ذلك يعود إلى «العريف» الّذي لم يُضع أبدا أهدافه الدقيقة ورؤيته الواضحة للحاجيات الأساسيّة، وبما أنّه جنديّ سابق لا يتحمّل أيّ خسارة، فقد اغتنم فرصة الفوضى التي عمّت الحانة للتعويض عن فشل مفاوضاته مع «كازوزا» فاختلس بعض الزجاجات أثناء العراك ودسّها تحت ثياب النساء.. «كينكاس» وحبيبته «كيتاريا» فقط بقيا خارج الحلقة ولم يأكلا شيئا، بل اكتفيا بالاستلقاء في مؤخّرة المركب، شبه منصتين إلى غناء «ماريا كلارا»، وكانت الجميلة «جاحظة العينين» توشوش في أذن «ذئب البحار العجوز» ببعض كلمات الحبّ والعتاب:

-لماذا سبّبت لي كلّ هذا الذعر يا «هدير» اللئيم؟ أنت تعرف أن قلبي ضعيف وقد نصحني الطبيب بتجنب الغضب. أيّ أفكار هذه التي تخطر على بالك؟ ألا تعلم أنّني لا أستطيع العيش من دونك يا

Twitter: @ketab_n

شريك الشيطان؟ لقد أدمنتُك وأدمنتُ الأشياء المجنونة التي تقولها لي، أدمنتُ شيخوختَك الحكيمة.. أساليبَك الوقحة.. وحبَّك للعطاء.. واليوم تفعل بي كلّ هذا؟ لماذا؟

وأمسكت رأسه الجريح ثمّ قبّلت عينيه الخبيثتين. ولكنّها لم تظفر بأيّ إجابة منه.. فقد كان يتطلّع إلى الهواء البحريّ، وإحدى يديه متدليّة خارج المركب مُخلّفةً جُرحا مستقيما على جسد البحر.

في بداية الحفلة كان كلّ شيء هادئا وجميلا: صوت «ماريا كلارا»، حساء السمك اللّذيذ.. النسيم البحريّ الّذي بدأ يخرج عن سكونه.. القمر في السماء.. ودندنة «كيتاريا» الجميلة. وفجأة بدأت الغيوم تحتشد أقصى الجنوب فابتلعت القمر وأطفأت النجوم وغدا الهواء باردا وسريعا.. وحذّر الكابتن «مانويل» أصدقاءه:

- ستكون ليلة عاصفة، من الأفضل أن نعود.

فكّر في إيصال المركب إلى الميناء قبل وصول العاصفة، غير أنّ «الكَشاسا» كانت لذيذة، والمحادثات في غاية الروعة، و مازال هناك كثير من السمك في المرجل، يطفو فوق زيت النخيل الأصفر، وبدأ صوت «ماريا كلارا» يميل إلى الغنج الحزين، وقد كان ذلك كفيلا بإغراء الجميع بالبقاء طويلا في البحر. ومن جهة أخرى، كيف يجرؤ على مقاطعة غراميّات «كينكاس» و«كيتاريا» في تلك الليلة الاحتفالية؟

أدركتهم العاصفة وهبّت عليهم الرياح القويّة، وحاصرتهم الأمواج العاتية، وأظلم كلّ شيء حولهم، فبدت مدينة «باهية» متلالئةً من بعيد، وفجأة شقّ وميضُ البرق الظلام، وبدأ المطر يهطل بغزارة.

كان الكابتن «مانويل» ممُسكا بالدفّة والغليون في فمه.. ولكن لا أحد فهم كيف استطاع «كينكاس» النهوض على قدميه والاستناد إلى الشراع الصغير، و«كيتاريا» شاخصة فيه بعينيها العاشقتين غير

Twitter: @ketab_n

قادرة على تحويل بصرها عن وجه البحّار العجوز المبتسم للمياه وهي تغسل المركب، والبروق تضيء العتمة. كان الرجال والنساء مُتشبّثين بالحبال، متعلّقين بجوانب المركب، والريح تعصف والمركب الصغير يهدد بأن يغرق في أية لحظة. سكتت «ماريا كلارا» ووقفت إلى جانب الكابتن «مانويل» عند الدفّة...

حطّمت الأمواج ألواح المركب الخائرة، ومزّقت الرياح الأشرعة، ولم يبق صامدا غير غليون الكابتن «مانويل» ووجه «كينكاس» المشرئبّ كذئب البحار لمواجهة العاصفة رائقا ومهيبا..

كان المركب يتقدّم ببطء وصعوبة نحو المياه الأكثر هدوءا، وفيما ظنّ الجميع أنّهم بلغوا منطقة الأمان وأنّهم سيستأنفون حفلتهم من جديد، خطفت أبصارهم فجأة خمسة بروق متتالية، وقصف الرّعد بصوت خارق كأنّه من يوم الحشر، وهزّت موجة شاهقة المركب..

تعالت صرخات الفزع والاستغاثة من النساء والرجال معا. وصاحت «السمينة مارغو»:

- أنقذيني أيتها العذراء!

في ذروة هيجان البحر، وفي قلب الخطر المُحدق بالمركب المنهار، تحت وميض البرق، شاهدوا جميعا «كينكاس» يلقي بنفسه في البحر وسمعوا كلماته الأخيرة:

-على كل فرد أن يعتني بدفن نفسه، فلا وجود لمستحيل

كان المركب يدخل في المياه الهادئة، وكانت الجماعة قد استعادت هدوءها وإحساسها بالسلامة والأمان، ماعدا «كينكاس» فقد آثر أن يُكفّن بلحاف من الأمواج وزبد البحر، واختار العاصفة بإرادته الحرّة.

Twitter: @ketab_n

XII

لم تكن لوكالة الدفن أيّة رغبة في استعادة التابوت حتّى بنصف ثمنه. كان عليهم أن يدفعوا كلّ شيء، وقد وجدت «فندا» حلاًّ للشموع المتبقيّة فعادت بها إلى منزلها، في حين ظلّ التابوت إلى حدّ هذا اليوم في مخزن «إدواردو» منتظرا بيعه إلى ميت من الدرجة الثانية. أمّا كلمات «كينكاس» الأخيرة فما زالت الروايات مختلفة حولها إلى الآن. فمن كان يستطيع أن يستمع إليه مباشرة في تلك الليلة العاصفة؟ ولكن حسب رواية شاعر جوّال، وهي الرواية التي راجت في السوق دون غيرها من الروايات، كانت اللّحظات الأخيرة على هذا النحو:

في خضمّ الاضطراب العميم سُمع «كينكاس» يقول:

«سأُدفن كما أشتهي

في الساعة التي أشتهي.

يمكنكم أن تحفظوا تابوتكم إذن

لميتة جديدة، وميّت جديد.

أمّا أنا فلن أترك أحدا يحبسني

في قبر أرضيّ رذيل.»

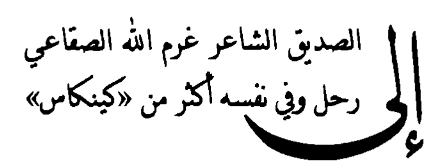
و كان من المستحيل معرفة بقيّة الكلمات.

ريو، أفريل، 1959.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مكر الحقيقة وصراع التخييلات
إمكان قراءة على سبيل الحاشية



1/اهدأ أيّها الأستاذ! اهدأ قليلا...

«وذات يوم ربيعيّ مقدّس فُتحت النوافذ. كانت شجرة المندرين مزدهرة في الجانب الآخر من الشارع ودخلت رائحتها الصفّ. فتحوّل كلّ عقل من عقولنا إلى شجرة مندرين مزدهرة ولم نعد نقوى على احتمال سماع أيّ شيء آخر من الأستاذ حول الحركات والعلامات الحادّة والمنحنية. وفي اللّحظة ذاتها جاء عصفور وحطّ على شجرة الدلب في باحة المدرسة وبدأ يزقزق. عند هذا الحدّ، كان تلميذ شاحب أحمر الرأس، وصل هذا العام من قريته واسمه نيكولويس، قد فقد السيطرة على نفسه تماما، فرفع إصبعه وقال:

"اهدأ أيّها الأستاذ! اهدأ قليلا.. دعنا نسمع العصفور"»[1]

1/حاشية أولى:

ما الّذي جاء بنيكوس كازنتزاكي إلى عتبة هذه الصفحات والمسافة بين اليونان والبرازيل تمتدّ على أكثر من قارّة غير مكر الكتابة نفسها وهي تحاول منذ البدء أن تتخطّى منزلقاتها.

ذلك هو الإحراج الأوّل الّذي يضعنا أمامه عمل ساحر مثل

(1) نيكوس كازنتزاكي، تقرير إلى غريكو، ترجمة ممدوح عدوان، دار الجندي، دمشق، د.ت. ص56.

Twitter: @ketab_n

«ميتتان لرجل واحد» لجورج أمادو، عمل قوامه السخرية من كلّ شيء والتلاعب بكلّ شيء بما في ذلك الموت نفسه، إذ يجرّده من ثقله وهيبته ويجعله مجرّد مادّة للّعب. كيف نقبض على فتنة هذه الرواية التي وسمناها بـ«الساحرة» وكلمة «ساحر» لا تعبّر ها هنا إلاّ عن عجز اللغة عن الإمساك بموضوعها، حتّى أنّ ضحكةً ماكرةً ارتسمت على الوجه ونحن نتخيّل مربّع غريماس السيميائيّ يتصبّب عرقا أمام عمل مثل هذا يعصف بكلّ المقولات الثنائيّة وتضطلع فيه شخصيّة الميّت وهي الشخصيّة المحوريّة هنا بدور الفاعل والمفعول، دور القائم بالفعل والواقع عليه الفعل في اللّحظة ذاتها. ولكنّ هذه الضحكة الماكرة سرعان ما انقلبت علينا نحن أيضا وتحوّلت إلى علامة فزع بمجرّد اقتراح السيّد الناشر وهو هنا ضمير المتكلّم كتابة تقديم لهذا العمل لاقتناعنا بأنّ أيّ محاولة ستكون شبيهة بالأستاذ الّذي يصدّع رؤوس التلاميذ بالعلامات الحادّة والمنحنية في درس الصوتيّات، فيما تغريد البلبل ينساب رقراقا إلى مسامعهم ويرسل كلّ كلام الأستاذ إلى سلّة المهملات. لذلك لا تدّعي هذه الصفحات أنّها تقديم لأنّ التقديم عتبة تُوجّه القراءة وتختزلها في وجهة نظر المقدّم دون سواه، وفي ذلك تنكّر لجوهر هذا العمل الّذي يرفض كلّ سلطة، بل تقدّم نفسها بوصفها إمكان قراءة، وحواريّة بين النصوص لا حوارا يقوم على منطق السؤال والجواب. وهي تنطلق من تصوّر راسخ مفاده أنّ كلّ كتابةٍ أثرٌ يخلّف في القارئ أثرا، هو الأثرُ الّذي سنعمل على إبرازه في قادم الصفحات، لذلك لن يصمت الأستاذ، ولكنّه سيحاول أن يقلّد صوت العصفور.

2/الحقيقة في قرارة بئر- أمادو فاضحا أمادو...

«قرأت ذات يوم، ولم أعد أذكر ما إذا كان ذلك في كتاب أم في صحيفة أنّ الحقيقة مرميّة في قرارة بئر. ...ليس فقط أنّ الحقيقة موجودة في قرارة بئر بل وهناك يُمكن العثور عليها عارية، دون ستار

Twitter: @ketab_n

ليُغطّيها أو حتّى ليغطّي عورتها. ... في قرارة بئر وعارية.

البئر ليست بئرا، والقرارة ليست قرارة. وكما يقول المثل فإنّ هذا يعني أنّ الحقيقة يصعب نيلها وأنّها لا تعرض نفسها عارية في الأسواق بمتناول كلّ إنسان. ولكن من واجبنا، واجبنا جميعا، البحث عن حقيقة كلّ واقعة، وأن نغرق أنفسنا في ظلمة البئر لنصل إلى نورها القدسيّ.

صدّقوني إنّ رغبتي، ورغبتي الوحيدة، هي أن أكون موضوعيّا وبعيدا عن العواطف، رغبتي في البحث عن الحقيقة وسط المجادلات، ونبشها من الماضي دون انحياز، وتعريتها من الصيغ المتناقضة لكشف كلّ الأستار التي نسجها الخيال من أجل إخفاء الحقيقة العارية ولو جزئيّا.

كما ترون: مرّة أخرى يصبح من الصعب الوصول إلى الحقيقة وتجريدها من أستار الخيال.

هل يستطيع قرّائي الآن، بثقافتهم وخبرتهم أن يقولوا لي: ما هي الحقيقة. الحقيقة الكاملة؟

هل تكمن الحقيقة في الحوادث اليوميّة والأحداث المتكرّرة، في التفاهة أو السوقيّة التي ترتبط بها حيوات معظم النّاس؟ أم أنّ للحقيقة مأواها في الحلم الّذي أعطيناه للهرب من شرطنا الإنسانيّ؟ كيف يسمو الإنسان على رحلته في الحياة بالكيد والغشّ يوما بيوم؟ أم بالحلم المحلّق الّذي لا يعرف قيدا ولا حدودا؟

أين هي الحقيقة؟ قولوا لي، أرجوكم: في الواقع الصغير لكلّ منّا؟ أم في الحلم الإنسانيّ الكبير؟»[1]

2/حاشية ثانية:

غرفة مظلمة. رجل أنيق مسجّى في تابوت. شمعتان تجاهدان العتمة. وفريقان متوازيان. هذا كلّ ما في الصورة. تضادّ في الألوان، تدرّج في العمق: واجهة وخلفيّة، وانسجام في المكوّنات: أربع شخصيّات

(1) جورج أمادو، عودة البحّار، ترجمة ممدوح عدوان، دار ورد، دمشق 2001. ص ص5-6.

Twitter: @ketab_n

وراء أربع. كلّ شيء داخل الإطار يوحي بالتناسق والذوق لولا ثلاثة عناصر بدت غريبة ناشزة: لطخة مائلة على وجه الميّت أي ضحكة ساخرة تعبث بالحاضرين وتخلع عن الموت كلّ هيبة وخشوع، وكرسيّ يتيم قرب التابوت يفرض كلّ من يجلس عليه قوانين اللّعبة ويصرّفها على هواه، وكومة من الملابس الرثّة ملقاة في أقصى الزاوية كافحت يد الرسّام على إخفائها بإتقان.

الجثمان واحد. وقد جاء كلّ طرف ليشيّع شخصا ساكنا في التابوت. ولكن لحظة من فضلك!

- من يسكن التابوت؟ شخص أم شخصان؟
- انظر جيّدا إلى الصورة! هنالك شخص واحد في التابوت.
-أهو مكر الحكاية أم مكر الألوان إذن؟
- لا فرق ما دامت النتيجة واحدة وهي أنّ أمادو يعبث بنا جميعا.

جثّة واحدة، وحقيقتان، مسمّى واحد واسمان مختلفان، حياة واحدة وعُمران متباعدان، موصوف واحد وصفتان متناقضتان، ومنذ البدء يلقي بنا السيّد أمادو الماكر من خلف راويه المطيع في قلب الغرابة.

هكذا تبدأ الحكاية: رجل في الستّين يودّع العالم، ونبأ موته يقلب المدينة رأسا على عقب. أهو زعيم سياسيّ؟ أهو قائد عسكريّ؟ أهو علامة بارزة في تاريخ البرازيل؟ لا شيء من ذلك.. إنّه «كينكاس هدير الماء» زعيم مُشرّدي مدينة «باهيا» وصعلوك صعاليكها، وهو في الآن ذاته «جواكيم سواريس دا كونيا»، ربّ العائلة الطيّب والموظّف المثاليّ في دائرة الضرائب، الرجل الأنيق الهادئ الّذي يحظى باحترام الجميع... ومرّة أخرى تقفز الأسئلة إلى الذهن: أهو فصام في الشخصيّة يتوسّل به المؤلّف لبناء عمله الروائيّ؟ أم تناقض بين ظاهر وباطن يحاول أن يُضفي من خلاله غلالة من الغموض على بطله المحوريّ؟ ومرّة أخرى تكون الإجابة: لا شيء من ذلك أيضا..

Twitter: @ketab_n

بل هو جورج أمادو يتلاعب بنا ويسخر منّا جميعا إذ يجعلنا نصدّق أنّ الحقيقة عارية في قرارة بئر. وفي الواقع ليس هناك أكثر خجلا من الحقيقة.. وإذا كنتم تشكّون في ذلك فليخبرنا أحدكم: متى رآها عارية مرّة واحدة في حياته؟ أمّا البئر فليست سوى دليل آخر على مكر الكاتب، لأنّه لم يجرؤ على إعلامنا بمكانها. والغريب أنّ أمادو الملعون لا يتردّد في التلبّس بشخصيّة الشحّاذ وهو يحاول أن يستدرّ شفقتنا بثيابه الرثّة وعينيه الدامعتين متوسّلا الإجابة: «أين هي الحقيقة؟ قولوا لي، أرجوكم: في الواقع الصغير لكلّ منّا؟ أم في الحلم الإنسانيّ الكبير؟» ولعلّ الطريف أنّ الكشف عن فتنة الرواية وعن دهاء صاحبها لا يمكن أن يكون إلاّ بالإجابة عن هذا السؤال. فأين تكمن الحقيقة؟

على الرغم من تعدّد التصوّرات التي يسعفنا بها الفكر الإنسانيّ في حدّ الحقيقة، فإنّنا يمكن أن نتوقّف عند تصوّرين اثنين نراهما أساسيّين في فهم التحوّل الذي طرأ عليها. أمّا التصوّر الأوّل فيمثّله الطرح الميتافيزقيّ القديم ومفاده أنّ الحقيقة موجودة سلفًا وعلينا نحن أن نبحث عنها، وسواء أكانت هذه الحقيقة في عالم الماهيات عالم الجواهر والمُثل أم كانت ساكنة في قرارة بئر لا يعرفها سوى أمادو، فإنّ مهمّتنا هي الوصول إليها، وإذا انقطعت السُبل دونها وعزّ هذا المطلب فإنّ أقصى ما يطمح إليه الإنسان هو الحصول على نُسخة قريبة منها تبقى محكومة دائما بقدرتها على محاكاة الأصل وطاقتها المتجدّدة على تمثيله. أمّا التصوّر الثاني فإنّه يعصف بمفهوم النسخة ويُقيم بدلا منه مفهوم السوميلاكر[1] simulacres ويعني في

(1) يقدّم المفكّر الفرنسي جون بودريار مثالا جيّدا عن السوميلاكر، إذ يضعه في منزلة الخريطة في علاقة بالأرض الحقيقيّة التي تحيل عليها، فالخريطة واقع مصطنع، ينوب عن الواقع الفعليّ، ولكنّ هذا الواقع تتصّل من الإحالة على الأصل وصار يعمل بوصفه بديلا، فحجب تماما الواقع الأوّل وصار مكتفيا بذاته. يمكن التعمّق في السوميلاكر والوقوف على آليات اشتغاله في مختلف ضروب الخطاب، بالعودة إلى:

Jean Baudrillard; Simulacres et simulation; ed, Galilee, Paris. 1985.

Twitter: @ketab_n

ما يعنيه الحقيقة المصطنعة والواقع المصطنع، ومن هذه الزاوية لم تعد الحقيقة موجودة سلفا، بل صارت من صميم الكائن البشري ومن صميم جزئيّاته وتفاصيله، فلا حقيقة خارج ما يبدعه الإنسان وخارج طاقته العالية على التخييل، وصار السؤال يدور على الآليات الكفيلة بفرض هذه الحقيقة دون سواها من آلاف الحقائق بواسطة الآلة الإعلامية الضخمة وصناعة الأفلام وغيرها من الوسائل، ويكفي أن نذكر في هذا السياق الطريقة الماكرة التي مسحت بها الولايات المتحدة الامريكية خسارتها التاريخية في الفيتنام، وكيفيّة تحويلها إلى انتصار عبر آلة هوليود الضخمة.

لم تعد الحقيقة في قرارة بئر وإنّما غدت داخل مصنع ضخم لإنتاج ملايين الحقائق كلّ يوم. ولكن ما علاقة ذلك برواية كهذه لا يتخطى عدد صفحاتها التسعين صفحة؟

ها هنا تحديدا ينكشف مكر جورج أمادو، فهو يرفع في وجوهنا التصوّر الأوّل الّذي يجعله مجرّد باحث عن الحقيقة، ومحض متسوّل لها، ويتبنّى خفيةً الثاني بواسطة الحكي والتخييل، يُظهر شيئا ويُضمر آخر، إنّه ينتصر للتصوّر الثاني عبر التلاعب بالأوّل، ينتصر للجزئيّات والتفاصيل في اللحظة ذاتها التي يبدو لنا فيها حائرا أمام الحقائق الكليّة، وليست هناك حقيقة شغلت البشريّة منذ صرخة جلجامش إلى اليوم أكثر من حقيقة الموت. لذلك جعل أمادو شخصيّته المحوريّة شخصيّة موشومة بجملة من الآثار المتناقضة، فقد عاش «جواكيم سواريس دا كونيا» إلى حدود عامه الخمسين ضمن الأطر المألوفة رجلا مُطيعا وربّ أسرة محترما وأبا جيّدا وموظّفا مثاليّا، وفجأة يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، ويخلع عن ظهره عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، مُقضّيا السنوات العشر الأخيرة من حياته في قلب العالم السفليّ صعلوكا

Twitter: @ketab_n

من أعتى صعاليك المدينة وقائدا فذّا للسكارى والمشرّدين يعرفه الجميع باسم «كينكاس هدير الماء» حتّى غادره آخر نبض على فراش بائس في غرفة بائسة في «طوباو» . ومن اللّحظة التي يتمّ فيها الإعلان عن خبر وفاته، يبدأ الصراع بين العائلة من جهة وأصدقاء المرحوم من جهة ثانية لتثبيت هذه الحقيقة المتناقضة الغائمة في وجه من وجوهها، ويمكننا أن نقسّم هذا الصراع إلى مستويين:

أ- **مستوى الفعل:** وهو هنا فعل رمزيّ الغاية منه تملّك الموضوع واختزاله في جانب من جوانبه، وفي هذا السياق يمكن أن نجاري أمادو قليلا في حكاية الحقيقة العارية في قرارة بئر، فهي عارية مثل كلّ فكرة مجرّدة ولكنّها لا تكتسب معناها خارج فعل الإكساء الذي يخلعه عليها كلّ من يصل إليها أوّلا أو ينفرد بها. ويكفي أن نلقي نظرة على هذا المقطع من الرواية حتّى نقف على هذه الفكرة بجلاء:

"لقد كان رجال وكالة الدفن يعرفون أسرار عملهم جيّدا، فحقّقوا إنجازا كبيرا حتّى أنّ بائع التماثيل الدينيّة الّذي ظهر ليرى كيف تسير الأمور لم يتمالك نفسه عن الهتاف: «هذا الميّت شخص آخر». كان الميّت ممشّطَ الشعر، حليق اللّحية، يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض وربطة عنق جديدة وينتعل حذاءً لمّاعا. "هذا هو حقّا «جواكيم سواريس دا كونيا» النائم في تابوت يليق بملك" هكذا علّقت «فندا» في قرارة نفسها (...) تخيّلت أمّها والسعادة تغمرُها هناك في غياهب الكون البعيد حيث ترقد روحها لأن أمنيتها تحقّقت أخيرا، فلقد أعادت ابنتُها ذلك المجنون إلى الرشد فرجع مرّة أخرى «جواكيم سواريس دا كونيا» الرجلَ الطيّب الخجول، والأبَ المثاليّ والزوج المطيع الّذي يكفي أن ترفع صوتها أمامه ليخفي وجهه ويعود عاقلا متصالحا معها من جديد."

إنّ إكساء الميّت ملابس جديدة وغسله وتمشيطه ليس فعلا طقوسيّا

Twitter: @ketab_n

فحسب بل فعل تملّك يخلع عن الموضوع صفاته القديمة وملابسة الرثّة واسمه القديم ويجعله متطابقا مع الصورة التي يُريدها الفاعل، ولكنّ فكرة الأثر تنسف مفهوم المطابقة، ومهما اجتهد عمّال وكالة الدفن في طمس آثار «كينكاس» القديمة حتّى يعود «جواكيم» مرة ثانية، فإنّ أثرا بارزا ظلّ يذكّر بالصعولك الساخر ويحول دون تطابق «جواكيم» مع صورته، وهو الأثر ذاته الّذي تمكن من خلاله أصدقاء «كينكاس» من التعرّف إليه حين ذهبوا ليلقوا عليه نظرة الوداع:

"في البداية شعر «الطائر الجميل» بأنّ في الأمر خدعةً، فلا يمكن أن يكون هذا الميّت «كينكاس هدير الماء»! ولكنّه تعرّف إليه بصعوبة بعد ذلك من خلال ابتسامته الساخرة.. وأصيب الأصدقاء الأربعة بالذهول.. إذ لم يتوقّعوا أبدا أن يروا «كينكاس» نظيفا وأنيقا في مظهره وثيابه كما يرونه الآن."

إنّ هذه الضحكة الساخرة من كلّ شيء، هي الأثر الّذي بقي شاهدا على حضور «كينكاس» أمّا الملابس الأنيقة فأمرها يسير فبمجرّد أن يختلي الأصدقاء بـ «الميّت» حتّى يخلعوا عنه هذه الملابس الجديدة ويكسوه ملابسه القديمة الرثّة التي تغافل عنها الماكر أمادو وتركها ملقاة في ركن الغرفة:

"لقد نزعوا عنه ثيابه قطعةً بعد أخرى وتقاسموها، ثمّ جمع «المدهون» ملابس صديقه القديمة الملقاة في زاوية الغرفة وألبسوه إيّاها. وحينها فقط تمكّنوا من التعرّف إليه: أجل، هذا هو «كينكاس»."

هكذا إذن تتغيّر الحقيقة حسب فعل الإكساء ذاته، وتصبح الهويّة هويّات والحقيقة حقائق والأيقونة مجرّد سوميلاكر يحتفي باختلافه، ألم أقل لكم لا تصدّقوا السيّد أمادو حتّى وإن أثار تعاطفكم وبدا لكم في صورة الضحيّة المرتبكة الخائفة وهي تنزل البئر حيث تسكن الحقيقة عارية من كلّ شيء.

Twitter: @ketab_n

ب- مستوى الحكي: يقول بول ريكور في فصل شيّق موسوم بـ«الحياة بحثا عن السرد» من كتابه «الوجود والزمان والسرد»: "إنّ الخيال، ولا سيّما الخيال السرديّ، بُعدٌ لا يقبل الاختزال من أبعاد فهم الذّات. وإذا صحّ أنّ الخيال لا يكتمل إلاّ بالحياة، وأنّ الحياة لا تُفهم إلاّ من خلال القصص التي تُروى عنها، إذن فالحياة «المُبتلاة بالعناء» بالمعنى الّذي استعرناه من عبارة سقراط، هي حياة«تروى» "[1]

ما الّذي يعنيه ريكور بقوله: «إنّ الحياة لا تُفهم إلاّ من خلال القصص التي تُروى عنها»؟ يعني أنّ الحياة خارج القصّ مجرّد مادّة خامّ، أو هي محض «حياة بيولوجيّة» على حدّ عبارة ريكور نفسه. ولكن هل القصّ مجرّد أداة لفهم الحياة؟ وإذا كانت حكمة سقراط تقول: «إنّ الحياة بلا عناء لا تستحقّ أن تُعاش» فهل يمكن للحياة أن تُعاش خارج القصّ؟

للإجابة عن هذا السؤال لابدّ من توضيح الرابط المشترك بين الحياة والقصّ. فالسمة الغالبة على تعريف الحياة هي أنّها صيرورة متبدّلة ومتغيّرة باستمرار، وكذلك القصّ، فهو التقاط لجملة من العناصر وإدماج لها في صيرورة حيّة، وإذا كانت الحياة تمضي دون رجعة ولا تخلّف لنا غير ركام من الآثار، فإنّ وظيفة القصّ هي نفخ الروح مجدّدا في تلك الآثار. هل يعني ذلك أنّ القصّ محاكاة لما يحدث على مسرح الحياة؟ إنّ تعريف القصّ بوصفه محاكاة يجرّده من كلّ طاقة تخييلية، وقد سبق لريكور أن نبّهنا إلى أنّ الحياة خارج الخيال مجرّد «حياة بيولوجيّة»، لذلك فإنّ القصّ هو شرط الحياة وليس مجرّد أداة لفهمها كما ذهب إلى ذلك ريكور، فالحياة تتحوّل وتمضي ولا يبقى منها غير القصّة، وما نراه الآن حياةً سيغدو بعد قليل قصّةَ حياة. فكلّ شيء منذور للتحوّل والنسيان ولا تصمد غير

---

(1) ديفيد وورد، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1999، ص ص 52-53.

Twitter: @ketab_n

الحكاية، وهي إذ تظلّ بيننا لا تقدّم نفسها بوصفها إمكانا بل بوصفها حقيقة، ولعلّ ذلك ما حدا بشاعر معاصر مثل محمود درويش إلى اعتبار الصراع الحقيقيّ بين الفلسطينيين والكيان الصهيونيّ المحتلّ صراعا تخييليا بالأساس، واختزل أبعاد المعركة في سطرين شعريّين:

«فكتبتُ: من يكتُبْ حكايتَهُ يرِثْ
أرض الكلام، ويملِك المعنى تماما»[1]

لا وجود لحقيقة خارج الحكاية، تلك هي الحكمة التي نستشفّها من قول درويش، فمن يفرض حكايته يفرض حقيقته لأنّه يكفل لها البقاء، وذلك تحديدا ما تفطّن له أصدقاء «كينكاس» حين رفضوا حكاية موته الأولى الّتي تبنّتها العائلة، وأعادوا كتابة حكاية موته من جديد، وبذلك يصبح الصراع بين رفاق المرحوم وعائلته صراعا داخل الحكاية وبواسطتها. إنّه صراع تخييلات fictions ينتصر فيه من تنتصر حكايته، وذلك جوهر هذه الرواية فـ «كينكاس» مات في الحكاية وعاد إلى الحياة بالحكاية ثم أسلمته الحكاية إلى الموت... قتلته حكاية بائع التماثيل الدينية ولم يكن حاضرا على موت الرجل بل مجرّد ناقل للخبر، ومفاد الحكاية العثور عليه ميتا على سريره الحقير في غرفته البائسة في «طوباو»، ثمّ أحياه رفاقه الأربعة بحكاية: «أيّها الناس، لقد سرَتْ إشاعةٌ مفادُها أنّ «هدير الماء» لقي حتفه، فخيّم الحزن ولبس الجميع ملابس الحداد(...) إنّه هنا، أيّها النّاس.. اليوم عيد ميلاده، وها نحن نحتفل به. سنقيم وليمة في مركب صيد الكابتن «مانويل».» ثمّ مات مجدّدا بواسطة الحكاية: «في ذروة هيجان البحر، وفي قلب الخطر المُحدق بالمركب المنهار، تحت وميض البرق، شاهدوا جميعا «كينكاس» يلقي بنفسه في البحر وسمعوا كلماته

---

(1) محمود درويش، لماذا تركت الحصان وحيدا، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت-لندن، ط4، ص 112.

Twitter: @ketab_n

الأخيرة: على كل فرد أن يعتني بدفن نفسه، فلا وجود لمستحيل».

ولعلّ الطريف في هذه الرواية أنّ جثمان البطل ووري داخل حكاية أولى قبل أن يموت في الحكاية الثانية ويلقي بنفسه إلى البحر في الحكاية الثالثة: «في الحقيقة، وبفضل مجهود جدير بأعظم آيات المديح من طرف كلّ الحاضرين، استطاعت العائلة أن تجعل روح المرحوم وكأنها تشعّ منذ سنوات دون أن تشوبها شائبة واحدة حتّى لحظة الإعلان عن موته للجميع. وكان الحديث عنه يجري في صيغة الماضي البعيد فقط، إذا ما أجبروا تحت أيّ ظرف من الظروف على الاستشهاد به.» إنّ اختزال حياة البطل في جزء واحد منها هو محاولة لفرض الحقيقة من وجهة نظر العائلة وطمس السنوات العشر الأخيرة من حياة المتشرّد البائس، فلأيّ الحقائق سينتصر أمادو في هذه الرواية وهو المصرّف لأقدار كلّ شخصيّاتها من وراء حجاب؟

سينتصر جورج أمادو لحقيقة الناس البسطاء الّذين يعيشون على الحكايات ويقتاتون منها، سينتصر للحقيقة الساكنة في التفاصيل، لا في الكليّات، للهامش لا للمتن، لـ «كينكاس هدير الماء» لا لـ «جواكيم سواريس دا كونيا» والأهمّ من ذلك كلّه أنّه سينتصر للطاقة الخلاّقة على التخييل، وذلك هو سرّ فتنة هذه الرواية. فلولا الاستيهامات والتخييلات لما تمكّن الكاتب من إنطاق بطله وتحريكه، فوضعه في البداية في غرفة واحدة مع ابنته «فندا» وجها لوجه وجعله ينطق بفعل الاستيهام: «إنّها ضحكة «كينكاس هدير الماء» المعهودة، وكلّ تفصيل فيها يحمل إهانة صريحة متلاشية في الصّمت الجنائزيّ الّذي فرضه الموت. خُيّل لـ «فندا» أنّها تسمع عبارة «حيّةٌ قذرة!» فخافت وبرقت عيناها كما كان يحصل مع «أوتاسيليا»، حتّى شحب وجهها ومال لونه إلى البياض(...) ارتعدت «فندا» على كرسيّها، ثمّ فركت عينيها بيديها، وتساءلت في قرارة نفسها إن كانت مجنونة حقّا! (...) فيما

Twitter: @ketab_n

اتّسعت ابتسامة «كينكاس» الماجنة، حالما رأى أخته وكأنّه يسخر من بدانتها المفرطة، فوضعت «فندا» إصبعيها في أذنيها، كي لا تسمع ما يمكن أن يتفوّه به من كلمات حقيرة لنعت «ماروكاس» ولكن دون جدوى فسرعان ما تناهت إليها عبارته المألوفة في وصف أخته: «ها هو كيس الضراط الضخم!» ولئن كان تخييل الأقوال أقصى ما بلغه الطرف الأوّل، فإنّه سيتخطّى عند الطرف الثاني مستوى الأقوال إلى الأفعال ذاتها، ولنا أن نتأمّل مشهد الميت وهو يجول مع رفاقه في شوارع مدينة «باهيا» ولكلّ حركة من حركاته تأويلها الخاص بفعل التخييل الّذي قوّض كلّ مسافة بين الواقع والخيال، وفتح الكتابة على الكوميديا السوداء، فصار ت الأقوال والأفعال والمواقف تطفح كلّها بسخرية عالية من الموت: «كان «كينكاس هدير الماء» في ذروة البهجة عابثا بكلّ شيء، فمرّةً يُحاول أن يعرقل «العريف» و«المدهون» معا، ومرّةً يُخرج لسانه للمارّة وكأنّه يسخر من الناس جميعا، وأحيانا يميل برأسه على أحد الأبواب ليتجسّس بخبث على عشيقين مُتلاشيين في الحبّ، ومع كلّ خطوة كان يعلن عن رغبته في التمدّد على الشارع...»

إنّها رواية تنتصر للتخييل والحكي معا، وليس أقدر على التخييل من بثّ الحياة في بطل ميّت، ذلك هو الدرس الّذي يقدّمه لنا أمادو، فليست الحكاية إمكان حياة بل هي الحياة نفسها بعد أن غادرتنا الحياة. كلّ شيء يسيل ويتحوّل وكلّ شيء سيسقط في قبضة الغياب: الأنهار، الكائنات، الأشجار، الأكواخ والبنايات، والأحلام التي بذرناها هنا وهناك... وتبقى الحكاية حقيقة ساطعة وأثرا يدلّ على مرورنا من هذا الكوكب ذات يوم، فلنستمع إلى الحكاية إذن.

3/ربّما... من يدري...

«يُحكى أنّ فلاّحا صينيّا فقد حصانه الوحيد الّذي كان يساعده في أعمال الحقل. فجاء إليه جيرانه في العشيّة يواسونه في مصيبته

Twitter: @ketab_n

قائلين: أيّة مصيبة حلّت بك! فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري! في اليوم التالي رجع الحصان إلى صاحبه ومعه ستّة جياد بريّة أدخلها الفلاّح إلى حظيرته. فجاء إليه الجيران يهنّئونه قائلين: أيّ خير أصابك! فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري! في اليوم الثالث عمد ابن الفلاّح الوحيد إلى أحد الجياد البريّة فأسرجه عنوة واعتلى صهوته، ولكنّ الجواد الجموح رماه عن ظهره فوقع أرضا وكُسرت ساقه. فجاء الجيران إلى الفلاّح يواسونه قائلين: أيّة مصيبة حلّت بك. فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري! في اليوم الرابع جاء ضابط التجنيد في مهمّة من الحاكم لسوق شباب القرية إلى الجيش، فأخذ من وجدهم صالحين للخدمة العسكرية وعفّ عن ابن الفلاّح بسبب عجزه. فجاء إليه الجيران يهنّئونه قائلين: أيّ خير أصابك! فهزّ الفلاّح رأسه قائلا: ربّما، من يدري!»[1]

3/حاشية ثالثة:

لم نستعر هذه الحكاية لأحد تلامذة لاوتسو من كتاب التاو الصينيّ إلاّ للتوقّف عند رؤيتين تحكمان العالم منذ القديم، رؤية تحدّ التعامل مع الأشياء بمنطق الربح والخسارة، منطق الخير والشرّ، منطق النفع والنجاعة، ورؤية ثانية لا ترى الوجود إلاّ في التغيّر والتقلّب، ومن هذه الزاوية فإنّ ما قد نراه نحن شرّا لا يراه أصحاب هذه الرؤية كذلك لأنّهم لا يؤمنون بالأضداد فلا وجود عندهم لخير محض أو لشرّ محض ما دام كلّ شيء صيرورة. وقد وسم إيريك فروم أسلوب الحياة الّذي تتحكّم فيه الرؤية الأولى بـ «أسلوب التملّك»[2] ووسم الأسلوب الصادر

---

(1) لاوتسو، كتاب التاو، صياغة عربية للنصّ، تقديم وشرح وتعليق: فراس السوّاح، دار علاء الدين، دمشق، 1998. ص 9.

(2) إيريك فروم، الإنسانُ بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 140، أوت 1989. ص ص 29-41.

Twitter: @ketab_n

عن الرؤية الثانية بـ «أسلوب الكينونة». يحدّد الأوّل علاقة الإنسان بالوجود على أساس الاستحواذ ويجعل قيمته مرتهنة بما يملك، فكلّما ملكتُ أكثرَ ارتفعت قيمتي بقيمة ما في يدي، أمّا الثاني فيعتبر الوجود فضاء للتجربة الحرّة، فضاء للمغامرة المتجدّدة ونحت الكيان. يتحرّك الأوّل ضمن الصورة النمطيّة المتعالية على طبيعة الذات ومجالُه المظهر، في حين يضرب الثاني عرض الحائط بالمتعارف والمألوف ولا يُصغي لغير نداء الذات ومجالُه الجوهر. والرواية كلّها مسرحيّة تبدو في الظاهر هزليّةً مُضحكة، ولكنّها في العمق مسرحيّة وجوديّة ذهنيّة لا تتصارع على خشبتها غير الأفكار والتصوّرات والرؤى.

«كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت وعادات حياة بأكملها؟ أن يهجر معارفه القدامى ليتشرّد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، متهافتا على المومسات، سائبَ اللّحية متّسخا يعيش في حظيرة وينام على فراش بائس؟ إلى هذه اللّحظة لم تجد «فندا» جوابا واحدا يقنعها بذلك». ذلك هو السؤال الّذي يطرحه علينا أمادو على لسان الابنة الحائرة. ولكن ما هي الرسالة التي يريد أن يقدّمها لنا؟ هل يقدّم البوهيميّة بديلا من حياة الطمأنينة والرفاه التي ننعم بها؟ هل نتخلّى عن عائلاتنا ونهيم مثل «كينكاس» على غير نهج؟

ستكون قراءتنا ساذجة إذا توقّفنا عند هذا المستوى من الفهم، ونكون بذلك قد أفرغنا هذا العمل الساحر من كلّ قيمة رمزيّة. لقد خلّف لنا أمادو وهو يتلاعب بنا أكثر من مفتاح لفهم التحوّل الّذي طرأ على شخصيّته المحوريّة والإجابة عن بقيّة الأسئلة، فَلْنبدأ من البداية، لِنَعُد إلى ماضي الشخصيّة السحيق، ولْنَستمِع إلى العمّة «ماروكاس» وهي توقظ الجمرَ من رماده أثناء حوار العائلة في المطعم:

«يَا لـ«جواكيم» المسكين ... كان رجلا طيّبا. ولم يُسِئ إلى أحد. لقد

Twitter: @ketab_n

تملّكه حبّ جارف لحياة التشرّد هذه، وكأنّها كانت قَدَرهُ منذ الصغر. ألا تذكر ذلك يا «إدواردو»؟ في إحدى المرّات كان يريد أن يرحل مع جماعة السيرك؟ وحينها سُلخ سلخا من شدّة العقاب (...) وأمُّك يا صغيرتي، كانت متسلّطة بعض الشيء. أذكرُ أنّه فرّ بعيدا ذات يوم، وحين عاد قال إنّه يريد أن يكون حُرًّا كعصفور. وفي الحقيقة كم كان ظريفا.»

ما الّذي يضيئه لنا كلام العمّة «ماروكاس»؟ إنّه يزيح قناع الشخصيّة ويكشف عن جوهرها، عن طبيعتها النشيطة الحالمة، فإلامَ انتهت هذه الشخصيّة التوّاقة إلى الحركة والرحيل؟ إلامَ انتهى هذا العصفور المتخبّط داخل القفص؟ مرّة أخرى يقدّم لنا أمادو وصفا دقيقا وهو يعبُر بنا من الجوهر إلى المظهر، من أعماق بطله المحوريّ إلى سطحه، من الذّات بهواجسها وأحلامِها إلى الصورة النمطيّة الثابتة:

«لم تكن تريد أن تتذكّر سوى أعوام طفولتها وشبابها وفترة خطبتها وزواجها، والطّيف الوديع لـ«جواكيم سواريس دا كونيا»، شبه المختفي في كرسيّ من القماش غارقا في قراءة جريدته، لا يصحو من غيبوبته تلك إلاّ حين يأتيه صوت «أوتاسيليا» بلهجة تأنيب: «جواكيم»! فيتوقّف عن القراءة ويهبّ واقفا... على هذه الصّورة كانت تحبّ أن تتذكّره وتشعر نحوه بالحنان. هذا هو الأب الّذي تشتاق إليه»

هذا ما انتهت إليه الشخصيّة الحالمة: التضاؤل، الغياب والتلاشي والطاعة المُطلقة. وذلك هو الحبّ وفق أسلوب التملّك. يقول إيريك فروم: «تتضمّن طريقة الحبّ وفق أسلوب التملّك السيطرة على من نحبّ، واحتوائه وسجنه. إنّها عمليّة خنق وإهلاك، وليست عطاءً للحياة. إنّ ما يُسمّيه الناس حُبّا ليس في الغالب إلاّ إفسادا وابتذالا للكلمة لإخفاء أنّ الحقيقة هي العكس. إنّ عدد الأمّهات والآباء الّذين يحبّون أطفالهم لا يزال مسألة تحتاج إلى بحث. وقد كشف لويد دي

Twitter: @ketab_n

موز أنّ الألفي سنة التي انقضت من تاريخ الغرب تحفل بالقصص والتقارير عن أشكال القسوة والفضاضة التي ارتُكبت في حق الأطفال، أشكال مفجعة من التعذيب البدني والنفسي، والإهمال والساديّة والامتلاك بالمعنى المباشر.. إلى درجة تدعو إلى الاعتقاد بأنّ الأمّهات والآباء الّذين أحبّوا أطفالهم حقيقة هم الاستثناء لا القاعدة»[1]

أين ذهب ذلك الطفل الحالم؟ أين الطائر الجوّاب؟ يجيبنا أمادو عن هذا السؤال في مناسبتين بطريقة مكثّفة موحية، الأولى حين يصوّر لنا الملابس التي اشترتها العائلة للميّت:

«اشتروا بذلة جديدة سوداء من محلّ قريب من هناك، (...) كما اشتروا حذاءً أسود، وقميصًا أبيض، إضافة إلى ربطة عنق وجوربين. أمّا الملابس الداخليّة فلا حاجة إليها.»

أمّا المناسبة الثانية فقد جاءت على لسان «العريف» أحد أصدقاء «كينكاس» الأربعة: «قد يكون ما فعلناه بك غير منطقيّ. لكنّ عائلتك مدرسة في البخل.. حتّى أنّ صهرك سرق ثيابك الداخليّة، هل تتصوّر ذلك؟»

أليس ما أهملته العائلة، في إطار سعيها المحموم إلى المحافظة على المظهر، هو الجوهر؟ ألم يُسرق من «كينكاس» جوهره؟ وهل الجوهر هنا غير تلك الثياب الداخليّة المنسيّة خلف المظهر الزائف؟

لا يتردّد أمادو عبر بطله الصعلوك في السخرية من كلّ المواضعات والأعراف التي انصبّ اهتمامها على تجريد الإنسان من ذاته وتقديمه قربانا للشكل الخارجيّ المُخادع والصورة النمطيّة الثابتة حيث تتهافت الأحلام والانفعالات والهواجس والرغبات في قبر الصورة المتعالية على حقيقة الإنسان وفي سجن المظهر، وليس أكثر تعبيرا عن ذلك من المشهد الساخر الّذي التقطه لـ «فندا» أمام جثمان أبيها:

إيريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر. ص ص 55-56.

Twitter: @ketab_n

«بهذه الذكرى الأخيرة وحدها أحسّت «فندا» بالتأثّر الشديد، حتّى أنّها همّت بالبكاء ولكنّ الغرفة كانت خالية للأسف، آه.. لو انتابها هذا الإحساس في الجنازة لكانت قادرة على سفح بعض الدموع أمام النّاس كما يليق بابنة صالحة.»

ما الّذي تبقّى للإنسان حين يتبرّع بماهيته من أجل المظهر؟ عليه أن يذبح أنينه على منحدرات الروح ويمنعه من الصعود حتّى لا يشوّه مشهد الفرح الزائف في الخارج، وحين يكون السياق غير السياق، حين يفرض كلّ شيء اللوعة والحزن، حين يكون الباب مواربا والفضاء مفتوحا لفُسحة آهة، فَعليْه أن ينصبَ لها المشانق طالما ارتبط وجودنا بعين الآخر التي تحدّد موقعنا داخل الصورة ومنزلتنا في الحياة. هكذا تصعد دمعة إلى عين «فندا» الواقفة قبالة جثمان أبيها، ولكنّها سرعان ما تتدحرج إلى الداخل من جديد لأنّ الصورة تفتقر إلى المشاهدين كفريق يلعب على أرضه دون جمهور.

أيّة مفارقة يقحمنا في صلبها الكاتب إذ يقلب الأدوار فيجرّد كلّ من يقف متقنّعا في واجهة الصورة من إنسانيّته، وبحركة واحدة من ريشة رسّام، حركة خفيفة مائلة تحت الأنف، يُلقي بابتسامة ساخرة على وجه الميّت فيبعث فيه الحياة؟ أليست هذه الرسالة التي أراد أمادو أن يبلغها لنا من وراء هذه الرواية الساخرة؟ ألا يقول لنا الكاتب كم عدد الأحياء منكم في هذه الحياة؟ كم منكم تبرّع بحلمه من أجل صورة زائفة؟ كم منكم أراد أن يقفز فرحا ولكنّه سرعان ما انثنى حتّى لا يخلّ بالحياء العام؟ كم منكم أراد أن يتّخذ طريقا في حياته وعدل عنه لأنّ الأب أو الخالة أو العمّة يريدونه محاميا لا طبيبا، طبيبا لا رسّاما، صحفيّا لا راقصا.. لقد أصغى «كينكاس» إلى نداء الرحيل الساكن فيه وضرب عرض الحائط بالمظهر الزائف الّذي شنق الإنسانيّ فينا، فهل أصغينا نحن إلى ذواتنا؟ ذلك ما تقوله الرواية لا مجرّد الصعلكة

Twitter: @ketab_n

أو المجون. في داخل كلّ منّا ينام «كينكاس» مّا مختلف عن الآخر مثل بصمة اليد ولكنّنا نقدّمه قربانا للمشترك والمتداول والمكرور، ونطمس البصمة، نغمّسها في الجمر ونحن نئنّ من أجل الصورة. لذلك فهي رواية تنتصر للحياة مقابل الموت، تنتصر للذّات إزاء القوالب الجاهزة التي تحاصرها وتمنحها شكلها كلّ يوم، تنتصر للهامش الخلفيّ في وجه الواجهة الكاذبة، وتنتصر للإنسان هذا الكائن الهشّ وقد ظلّ كُرةً تتقاذفها أرجل الأعراف والتقاليد والعائلة والمدرسة وموظفو الله وحُرّاس النوايا الّذين يشاركونه علمه بما في الصدور ويقتلون باسمه ويغسلون الأذهان باسمه ويقطون طرق الرحمة باسمه... أصوات وأصوات وأصوات ما انفكّت تجرّح أسماعنا حتّى ظننّا أعمارنا المسفوحةَ عصير فراولة وصرنا قطعة من تلك الأصوات.

أما آن لكلّ واحد منّا أن يُصمّ أذنيه قليلا ويصغي مرّة واحدة لما يريد؟ ذلك ما تريد هذه الرواية ببساطة أن تقوله لنا. ربّما! من يدري؟

4/اللّوحة-القصيدة-الحكاية:

«عينان ذئبيتان بلا قرار. وجه أخضر ولحية كألسنة النار. كانت الأذن في اللوحة ناشزة لا حاجة بي إليها. أمسكت الريشة، أقصد موس الحلاقة وأزلتها.. يظهر أن الأمر قد اختلط عليّ، بين رأسي خارج اللوحة وداخلها... حسنا ماذا سأفعل بتلك الكتلة اللحمية؟ أرسلتها إلى المرأة التي لم تعرف قيمتي وظننتُ أنّي أحبّها.. لا بأس فلتجتمع الزوائد معا.. إليك أذني أيتها المرأة الثرثارة، تحدّثي إليها... الآن أستطيع أن أسمع وأرى بأصابعي.»[1]

4/حاشية رابعة:

«لتجتمع الزوائد معا».. لم يكتب فان غوغ هذه الجملة بالقلم بل

(1) من رسالة فان غوغ الأخيرة إلى أخيه.

Twitter: @ketab_n

كتبها بموس الحلاقة، كتبها من أجل المومس التي أحبّها ولم تنظر إليه يوما إلاّ بوصفه زبونا، بوصفه موضوعا مؤقّتا للتملّك لا بوصفه ذاتا متوهّجة حيّة، لذلك ترك لها أذنه العنصر المحبّب إليها من جسده، العنصر الذي كانت تداعبه دائما، أهداه إليها، وغادر الإطار مرتحلا دون رجعة... فما الّذي بقي من فان غوغ؟ بقيت اللّوحة دليلَ كينونةٍ وموضوعَ حياة.

يغادر «كينكاس»، ويترك الشموع والتابوت للعائلة، هو ليس في حاجة إليها، ليس في حاجة إلى قبر ثان بعد قبر العائلة.. لتجتمعِ الزوائد معا، فما الّذي بقي من «كينكاس»؟ بقيت القصيدة :

«سأُدفن كما أشتهي

في الساعة التي أشتهي.

يمكنكم أن تحفظوا تابوتكم إذن

لميتة جديدة، وميّت جديد.

أمّا أنا فلن أترك أحدا يحبسني

في قبر أرضيّ رذيل.»

وبقيت الحكايةُ تتلقّفها الأسماع وتتداولها الأفواه، بقي الأثر الّذي تركه لنا من الحياة، ما تمّ انتشاله من نهر الزمان وإلقاؤه في نهر الحكاية المتدفّق الجاري.

ذلك هو الدرس الأخير الّذي تعلّمه لنا هذه الرواية: من لم يُخلّف أثرا فقد كانت حياته على الماء ولا دليل يشير أبدا إلى أنّه وضع قدمه يوما على هذه الأرض.

5/امّا التفاصيل....:

«كان راهب زن يتهيّأ للكلام في ساحة القرية الكبيرة. حرّر خطابه بعناية فائقة، وبينما كان يتأهّب لقراءته هبّت الريح فجأة وألقت

Twitter: @ketab_n

الأوراق على أغصان شجرة ليمون. باغته الأمر ولم يعد يعرف من أين يبدأ كلامه، فقال:

- هاكم يا أصدقائي باختصار ما وددت عرضه عليكم: عندما أجوع آكل، وحين أتعب أنام!

- ولكن أليس كلّ الناس يفعلون مثلك أيّها المعلّم؟

سأل واحد من الحشد.

-لا! ليس بالطريقة نفسها!

- لماذا أيّها المعلّم؟

- عندما يأكل الناس، يفكّرون في كثير من الأشياء، وحين ينامون يفكّرون بمشكلاتهم. لهذا لا يفعلون مثلي!

حينها، نزل المعلّم وسَط الناس، وهو يردّد على مسامع المتسائلين: «أمّا التفاصيل فتجدونها على أغصان شجرة اللّيمون»[1]

5/حاشية خامسة:

من سوء حظّ المتكلّم فإنّ الريح لم تهبّ لتأخذ هذه الأوراق، ولكنّه أراد أن يقول لكم: «هذه رواية ساحرة لا يمكن أن تستغرقها قراءة واحدة». أمّا التفاصيل فما تزال ساكنة هناك بين الأسطر، تحتاج إلى زيارة ثانية ليخرج كلّ واحد منكم بمشروع قراءة لهذا العمل.

بإمكانكم الآن أن تعودوا إلى شجرة الليمون...

شوقي العنيزي

عرعر في 2015/1/20

Twitter: @ketab_n

---

(1) هنري برونل، أجمل حكايات الزن يتبعها فنّ الهايكو، ترجمة محمّد الدنيا، مراجعة محمود رزوقي، سلسلة إبداعات عالمية، العدد 353، الكويت، أفريل 2005. ص 215.

ألفــ راء

علامات في الرواية العالمية
سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

ساعي بريد نيرودا

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقًا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، فعالم الرواية الافتراضي متاهة يتعذّر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السردية حيث يختل توازن الأحداث ثم يعاد في النهاية؛ فإن نسق الاختلال يتعمّق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبدا.

رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأُعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

Twitter: @ketab_n

انقطاعات الموت

المؤلف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، لا تواجهك عينا لعين، وما حاجتها إلى ذلك؟ بل تفتح عينيك لترى الغامض والمدنّس والمرفوض، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

يجعل ساراماغو الوحش الذّي يقيم في أعماقك يظهر ويفتح جناحي شروره ويمارس في العلن وضاعته وخسّته. تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟

بعد القراءة أنتَ لستَ الشّخصَ الذّي كُنتَهُ، كُنتَ تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مُستغَلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة التّي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

نصر سامي

Twitter: @ketab_n

الحب في زمن الكوليرا

المؤلّف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني

هل أصغينا مرّة واحدة إلى صوت الحبّ المتغلغل في بلبال الواقع وفوضاه، هل حدّقنا في وجهه وهو يقاوم آخرَ العُمر على حافّة الهاوية؟ ذلك ما تتكفّل بمعالجته رواية «الحبّ في زمن الكوليرا»: أن نحبّ زمن الحرب والأوبئة، أن نجعل من وباء الكوليرا مبرّرا لإنزال الركّاب من الباخرة حتّى يخلو المكان النّهريّ للعاشقين وهما في السبعين من عمرهما بعد أن عاشا ماضيهما منفصلين، ها هما يعودان بعد عقود ليستعيدا حبّهما المراهق يتحدّيان به الموت شبقيْن، عاشقيْن، وكأنّهما في البرزخ ..

قصّة حبّ طويلة بمئات الشخصيّات تنتهي صفحاتها بعاشقين اثنين على متن باخرة في رحلة لا تنتهي ذهابا وإيّابا... قصّة وطن تمزّقه الحروب والأوبئة تتحوّل بقدرة قادر إلى حكاية حبّ أسطوري.. رواية تستند إلى التاريخ دون أن تقع في شراكه بل تحوّله إلى مادّة للتأمّل في الحبّ وفي الوجود الإنساني.. ها هنا يصير الحبّ ترياقا لكلّ الآفات بدءا بفعل الزّمن وانتهاء بالأحداث والتاريخ.. رواية ظاهرها بطلاها فلورنتينو أريثا وفرمينيا داثا تجري في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين في أمريكا الاّتينيّة... لكنها رواية الإنسانيّة في كلّ الأزمان وفي كلّ الأمكنة..

ما الإنسان بلا حبّ؟ وهل عاشت الإنسانية زمنا بلا كوليرا؟؟؟ أبدا... فقط سنقول إنّ لكلّ زمان وباءَهُ وآفتَهُ ولا دواء للإنسان غير المقاومة العاشقة...

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

زوربا اليوناني

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

كتاب يوقظ الأسلاف جميعهم مرّة واحدة، يأخذك بدهشة ورفق، ولكنّه حين تنضج عيناك في الرؤية وقلبك في المحبّة ويداك في المسك، يهزّك هزّا. تصبح ورقة صفراء أو زهرة لوز. أنت حرّ، المهمّ أنّك لست الإنسانَ نفسَه الذّي كان قبل القراءة. تعي أن الرّواية ليست فنّ حكي، ولا خرافة فقط، بل مادة تترقرق صافية من آلاف الكتب. تزهر يداك وأنت تحرّك الأوراق وتقرأ، أنا أزهرت مرارا مثل شجرة برقوق جبليّة، فيم العجب؟ نبتت على شفاهي لغة من صمت الغابات، وليل من كلمات الضّوء. وشقيت وأنا أقرأ، في مرّات كثيرة نشر الطلاب حولي قماشا وصعدوا فوق أغصاني لجمع الثّمرات. نعم تحوّلت شجرًا مرّة وكثيرا من المرّات غيما.. رأيت أسلوبا لم أعهده إلاّ في أمّهات النصوص المؤسّسة الحارقة وفي ذلك النّوع من السّرد الشفوي الذّي يقال عند الموت بحرارة اللّوعة وألم الفقد. فهمت أنّ للرّواية أنهارا خفيّة، وأنّ القلمَ آلةٌ غير صالحة لكتابة نصّ عظيم.

نصر سامي

Twitter: @ketab_n

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلّف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

بهذا العمل الصادر في مطلع الألفيّة الثالثة، استردّت الرواية الإيطاليّة حيويّتها على يدي نيكولو أمانيتي،

رواية معاصرةٌ، الشبابُ موضوعها وسؤالها ومنتهاها، تتكلّم بلغتهم وتروي حياتهم وتُعلي من أصواتهم المكتومة خلف جدار الصّمت. إنّها رواية جيل جديد بقي خارج اهتمام الأدب وصار وجوده مزعجا ولكنّه حقيقة كالشمس. ماهي أحلام هذا الجيل؟ ماهي هواجسه وتطلّعاته؟ ذلك ما تتكفّل بمحاولة الإجابة عنه هذه الرواية، ولكنّها محاولة لا تخمد الأسئلة بل تولّدها وتطرحها عارية في وجه العالم بلا حذلقة لغويّة. تسمّي الأشياء الجديدة بلغة جديدة، ولا تمرّ بل تبقى حاضرة فينا حتّى تجبرنا مباشرة على النظر، مثلما تتّخذ الفتاة الجميلة في عتبة الرواية القمر مرآة إلى أن يقول لها: «أنت جميلة... أنت جميلة...»

كيف انتقل بنا أمانيتي من منطقة الخيال إلى صميم الواقع؟ كيف قوّض المسافة بينهما بكلّ براعة ويسر؟ وكيف استدرج شخصيّاته إلى النطق ولم ينطق على لسانها؟ ذلك أيضا ما تتكفّل بإبرازه هذه الرواية بلغة متوهّجة حيّة تمزح بين الكوميديا والتراجيديا، بين القسوة والبراءة في ثلاثة أيّام هي كلّ عمر أحداث الرواية ولكنّها تعتصر حياة بأسرها، تأخذنا وتحملنا بعيدا.

لمع نجم الكاتب بعد هذه الرواية التي حصدت العديد من الجوائز، وتمّت ترجمتها إلى 21 لغة وباعت ملايين النسخ.

الناشر

Twitter: @ketab_n

المرجومة

المؤلّف: فريدون صاحبجام
البلد: إيران
ترجمة: وليد سليمان

«ثريا مانوتشهري» ليست مجرّد شخصيّة روائيّة من نسج الخيال، إنّما امرأة من لحم ودم، كائن بشريّ جرّدته يد المجتمع من كلّ شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها أراد التخلّص منها فاتهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائيّ والصحفيّ الإيراني «فرايدون صاحبجام» في وجه نظام الخميني الّذي أصدر ضدّه حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمرّ له، ولكنّ الكاتب المقيم في باريس تمكّن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصليّ لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضد «ثريا مانوتشهري» المُتّهمة ظلما بخيانة زوجها.

وهكذا يتحول الكاتب شاهد عيان على جريمة بشعة في حق امرأة انتهكت إنسانيتها، ولفّها الصمت، امرأة تآمر عليها مجتمع بأسره، حتّى والدُها الذي أُجبر على إلقاء الحجر الأول في عمليّة الرجم.

لقد تم تحويل هذه الرواية التي ترجمت إلى 30 لغة إلى شريط سينمائي ناجح بعنوان «رجم ثريا» وأخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

تموت المرأة لكن المجتمع لا يتوقف عن رجم نفسه، رجم هويته وتركيبته ومعناه...هذه رواية كبيرة، وعملٌ عظيم، وكتابةٌ يُستحى منها..

عبد الله ثابت

Twitter: @ketab_n

قلب كلب

المؤلّف: ميخائيل بولغاكوف
البلد: روسيا
ترجمة: أشرف القرقني

يقدّم ميخائيل بولغاكوف رسما استباقيّا لظلال الكارثة قبل اكتمالها، تلك التي ستلفّ الشّعب الرّوسيّ لأكثر من خمسين سنة.

وبقدرة هائلة على اختزال المتعدّد والمتشعّب في شبكة رمزيّة بسيطة ونافذة، يتمكّن هذا الكاتب الاستثنائيّ من ضيافة الشّعب الرّوسيّ برمّته داخل جسم «كلبٍ صالح»، يتعرّض لمسخ قسريّ عبر إقحام الأعضاء الأكثر حساسيّة لإنسانٍ ميّت في جسده...كلّ ذلك في لغة بسيطة ناقدة، تجعل من السّخرية الحصن الأخير الذي تنطلق منه كلّ حركة مقاومة واستعادة للإنسانيّ العميق من براثن اليوتوبيا الشيوعيّة الفجّة التي قضت على الإنسانيّ تحت شعار خلاصه.

هذه الرواية صوت مضادّ مكتوم لم نستمع إليه لأنّه جعل هاجسه فضح الانتهازيين بعد الثورة بشكل يجمع بين العجائبيّة والواقعيّة الفجّة، محبوكتين في نسيج السّخرية اللاّذعة. نشرت بعض فصولها على حلقات في الجريدة، ولكنّ ستالين سرعان ما تفطّن إلى خطورتها فانتفض إزاءها وجها لوجه، يُصادرها ويجوّع صاحبها لتبقى كاللّغم الممنوع الاقتراب منه أو مجرّد الإشارة إليه طوال 62 سنة، بدءا من سنة 1925 إلى سنة 1987 تاريخ صدورها لأوّل مرّة، أي بعد وفاة صاحبها بـ 33 سنة. ولكنّ نشرها كان كافيا لولوجها عالم الرّوائع الأدبيّة التي لا تنسى وانتشال صاحبها من سطوة النسيان لتضعه على مصاف كبار الكتّاب في العالم.

إنّها رواية تشييع الإنسان الجديد الذي بشّرت به الثورة الشيوعيّة إلى مثواه الأخير.

أشرف القرقني

Twitter: @ketab_n

عرس الشاعر

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

Twitter: @ketab_n

الحب والظلال

المؤلف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كلّ ما يمكنك فعله هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مُرّ في «الحبّ والظلال». كلّ لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبديّة تتسّع دوائرها فتنمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلا ليكون خارج الظلال، محافظا على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تنبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحَياة في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

أنور اليزيدي

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلاهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل الليّندي

Twitter: @ketab_n

حديقة الصخور

المؤلف: نيكوس كازنتزاكي

البلد: اليونان

ترجمة: أسامة إسبر

من الصعب أن تحدّد من هو كازنتزاكي في رواية «حديقة الصخور».. فهو هنا كل وجوهه المتعدّدة وما أكثرها.. الرّوائيّ يكتب حكايته، والشاعر ينظم قصيدته، والمسافر يدوّن مذكّرات رحلاته، والفيلسوف يتأمّل العالم وذاته، والسّياسيّ يلاحظ انهيار العالم وأكاذيب الإيديولوجيا ..

لقد تأثّر كازنتزاكي بنيتشة وبرغسون وماركس. فكره مزيج من كلّ تلك الفلسفات وفي روحه تمزّق متجانس بين السماويّ والوضعيّ وخارجهما، بين حكمة الشرق الأقصى مختزلة في بوذا والكثير من مسيحيّة الغرب وعلمانيّة الشّيوعيّين في العالم .. لا يقلقه تناقضه، بل يرى في ذلك عمق الوجود الإنسانيّ وخُلاصة مأساته وخلاصه ..

على امتداد صفحات الرّواية تطالعنا المدن و الوجوه في رحلة لا تنتهي بين عشرات الأماكن ومئات البشر .. لا شيء من ذلك يهمّ فعلا بقدر ما تهمّ التّجربة من ورائها والحكمة من وجودها..

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

يصدر قريبا

أيام قوس قزح

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

وردّدت الجبال الصدى

المؤلّف: خالد حسيني
البلد: أفغانستان
ترجمة: منير العليمي

قلب كلب

المؤلّف: ميخائيل بولغاكوف
البلد: روسيا
ترجمة: أشرف القرقني

رصيف الأزهار ما عاد يجيب

المؤلّف: مالك حدّاد
البلد: الجزائر
ترجمة: عبير مكي

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n



كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» المعروف عند رفاقه الصعاليك بـ «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفة بائسة. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر


9 789938 833225

